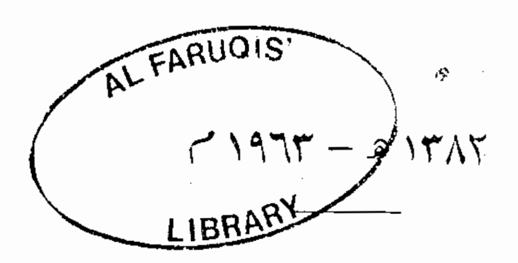


تأليف

الإمام الهمام حجة الإسلام أبى حامد محمد

ابن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥



١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده

بميدان الأزهر بمصر . ت ٤٨٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام الهمام حجة الاسلام زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى رضى الله تعالى عنه وأرضاه لما كانت السعادة التى هى مطلوب الاولين والآخرين لا تنال الا بالعلم والعمل وافتقر كل واحد منهما الى الاحاطة بحقيقته ومقداره ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار وفرغنا منه وجب معرفة العمل المسعد والتمييز بينه وبين العمل المشقى . فافتقر ذلك أيضا الى ميزان . فأردنا أن نخوض فيه ونبين أن الفتور عن طلب السعادة حماقة . ثم نبين أن لا طريق إلى السعادة إلا بالعلم والعمل . ثم نبين العلم وطريق تحصيله . ثم نبين العمل المسعد وطريقه . وكل ذلك بطريقة يترقى عن حد طريق التقليد إلى حد الوضوح لو استقصى بحقيقته وطول الكلام فيه ارتقى إلى حد البرهان على الشروط التى ذكرناها فى معيار العلم . وان كنا لسنا نطول الكلام به ولكن نرشد الى أصوله وقوانينه.

بيان أن الفتور عن طلب السعادة حماقة

السعادة الأخروية التى نعنى بها بقاء بلا فناء . ولذة بلا عناء . وسرور بلا حزن . وغنى بلا فقر . وكمال بلا نقصان . وعز بلا ذل . وبالجملة كلما يتصور أن يكون مطلوب طالب ومرغوب راغب وذلك أبد الآباد على وجه لا تنقصه تصرم الاحقاب والآماد . بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذر وقدرنا طائراً يختطف فى كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنى الذر ولم ينقص من أبد الآباد شىء . فهذا لا يحتاج الى استحثاث على طلبه وتقبيح الفتور

فيه بعد اعتقاد وجوده إذ كل عاقل يتسارع إلى أقل منه ولا يصرف عنه
كون الطريق اليه متوعراً وعوجا الى ترك لذات الدنيا واحتمال أنواع من
التعب هنا . فان المدة فى احتمال التعب منحصرة والفائت فيها قليل . واللذات
الدنيوية منصرمة منقضية . والعاقل يتيسر عليه ترك القليل نقدا فى طلب
اضعافه نسيئة — ولذلك ترك الخلق كلهم فى التجارات والصناعات . وحتى
فى طلب العلم يحتملون من الذل والخسران والتعب والنصب مايعظم مقاساته
طمعا فى حصول لذة لهم فى المستقبل تزيد على ما يفوتهم فى الحال زيادة
محدودة فكيف لا يسمحون بترك فى الحال لتوصل الى مزايا غير مقدرة
ولا محدودة . ولم يخلق فى الدنيا عاقل هو حريص على طلب المال كاف بذل
الدينار وانتظار شهر ليعتاض منه بعد مضى الشهر الاكسير الأعظم الذى
يقلب النحاس ذهبا إبريزاً إلا تسمح نفسه ببذله وإن كان ذلك فواتا فى الحال
حتى ان من لم يحتمل ألم الجوع مثلا فى مثل هذه المدة ليتوصل به إلى هذه
النعم الجسيمة لم يعد عاقلا ولعل ذلك لا يتصور وجوده فى الخلق مع أن
الموت وراء الانسان بالمرصاد . والذهب لا ينفع فى الآخرة . وربما يموت
فى الشهر أو بعد الشهر بيوم فلا ينتفع بالذهب . وكل ذلك لا يفتر رأيه فى
البذل طمعا فى هذا العوض . فكيف يفتر رأى العاقل فى مقاساة الشهوات
فى أيام العمر وأقصاها مائة سنة . والعوض الحاصل عنها سعادة لا آخر لها
ولكن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة لضعف إيمانهم باليوم الآخر
وإلا فالعقل الناقص قاض بالتشمير لسلوك طريق السعادة فضلا عن الكامل .

بيان أن الفتور عن طلب الإيمان به أيضا حماقة

أقول أن فتور الإيمان أيضاً مع أنه من الحماقة فليس يقتضى الفتور
فى سلوك سبل السعادة لولا الغفلة . فان الناس فى أمر الآخرة أربع فرق

(فرقة) اعتقدت الحشر والنشر والجنة والنار كما نطقت به الشرائع .
وأفصح عن وصفه القرآن وأثبتوا اللذات الحسية التى ترجع إلى المنكوح
والمطعوم والمشموم والملموس والملبوس والمنظور اليه . واعترفوا بأنه
ينضاف الى ذلك أنواع من السرور . وأصناف من اللذات التى لا يحيط
بها وصف الواصفين . فهى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر . وان ذلك يجرى أبداً بلا انقطاع . وأنه لا ينال إلا بالعلم
والعمل . وهؤلاء هم المسلمون كافة؛ بل المتبعون للأنبياء على الأكثر من
اليهود والنصارى (وفرقة ثانية) وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة
اعترفوا بنوع من اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها . وسموها لذة عقلية .
وأما الحسيات فأنكروا وجودها من خارج . ولكن أثبتوها على طريق
التخيل فى حالة النوم ولكن النوم يتكدر بالتنبه — وذلك لا تتكدر له
بل هو على التأبيد . وزعموا أن ذلك يثبت لطائفة من المشغوفين بالمحسوسات
والذين التفات نفوسهم متصور عليها ولا يسمون إلى اللذات العقلية —
وهذا لا يفضى إلى أمر يوجب فتوراً فى الطلب . فان الالتذاذ انما يقع بما
يحصل فى نفس الانسان من التأثر بالملموس والمنظور والمطعوم وغيره .
والشيء الخارج سبب فى حصول الأثر وليست اللذة من الأثر الخارج بل من الأثر
الحاصل عند حضور الخارج . فاذا أمكن حصول الأثر فى النفس دون الشيء
الخارج كما فى حالة النوم فلا ارب فى الشيء الخارج (وفرقة ثالثة) ذهبوا
إلى إنكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال . وزعموا أن التخييل
لا يحصل إلا بآلات جسمانية والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن الذى
هو آلته فى التخييل وسائر الاحساسات . ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد
أن أطرحه . فلا يبقى له إلا الآلام ولذات ليست حسية ولكنها أعظم من
الحسية . فان الإنسان فى هذا العالم أيضا ميله إلى اللذات العقلية . ونفرته

عن الآلام العقلية أشد — ولذلك يكرهون فى الطلب إراقة ماء الوجه
ويؤثرون الاحتراز عن الافتضاح والاستتار فى قضاء شهوة الفرج ومقاساة
الآلام والمشقات . بل قد يؤثر الإنسان ترك الطعام يوما أويومين ليتوصل
به إلى لذة الغلبة فى الشطرنج مع حسيته ولذة الغلبة عقلية . وقد يهجم على
عدد كبير من المقاتلين ليقتل ويعتاض عنه ما يقدره فى نفسه من لذة الحمد
والوصف بالشجاعة . وزعموا أن الحسيات بالاضافة إلى اللذات الكائنة
فى الدار الآخرة فى غاية القصور . ويكاد يكون نسبتها اليها كنسبة ادراك
رائحة المطعوم اللذيذ إلى ذوقه ونسبة النظر فى وجه المعشوق الى مضاجعته
ومجامعته بل ابعد منه نسبة وزعموا أن ذلك لما بعد عن فهم الجماهير مثلت
لهم تلك اللذات بما عرفوها من الحسيات كما أن الصبي يشتغل بالتعلم لينال به
القضاء أو الوزارة وهو لا يدرك فى الصبي لذتهما . فيوعد بأمور يلتذ بها
كثيراً (كصولجان) يلعب به أو عصفور يعبث به وأمثاله . وأين لذة اللعب
بالعصفور من لذة الملك والوزارة . ولكن لما قصر فهمه عن درك الاعلى
مثل بالآخر ورغب فيه تلطفا باستدراجه الى ما فيه سعادته . وهذا أيضا
إذا صح فلا يوجب فتوراً فى الطلب بل يوجب زيادة الجد . وإلى هذا
ذهبت الصوفية والإلهيون من الفلاسفة من عند آخرهم حتى ان مشايخ
الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا . وقالوا من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر
من النار فهو لئيم . وانما مطلب القاصدين إلى الله أمر أشرف من هذا .
ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم
هذا الاعتقاد من مجارى أحوالهم على القطع (وفرقة رابعة) وهم جماهير
من الحمق لا يعرفون بأسمائهم ولا يعدون فى زمرة النظار ذهبوا الى أن
الموت عدم محض . وأن الطاعة والمعصية لاعاقبة لها . ويرجع الانسان بعد
موته إلى العدم كما كان قبل وجوده . وهؤلاء لا يحل تسميتهم فرقة . فان

الفرقة عبارة عن جمع وليس هذا مذهب جمع ولا منسوبا إلى ناظر معروف
بل هو معتقد أحمق بطال غلبت عليه شهوته . واستولى عليه شيطانه . فلم
يقدر على قمع هواه . ولم تسمح له رعونته بأن يعترف بالعجز عن مقاومة
الهوى . فيتعلل لنقصانه بأن ذلك واجب وأنه الحق . ثم أحب أن يساعده
غيره فدعا إلى البطالة وما جبلت عليه النفس من اتباع الهوى الذى هو أشد
حامل الاحمق على المسارعة الى التصديق به لا سيما وقد يحتال بعض الفسقة
بنسبة هذا المعتقد إلى معروف بدقائق العلوم كارسطوطاليس وأفلاطون أو
إلى فرقة كالفلاسفة . ويستدرج السامع بأن معرفتك لا تزيد على معرفتهم .
قد بحثوا زمانا وما تحصلوا على طائل ولايشعر ذلك المسكين بتلبيسه فيصدقه
لموافقته طبعه ولا يطالبه بالبرهان فى نقل المذهب عمن نقله . ولو أخبره
بأثر يتعلق به خسران درهم لكان لا يصدقه إلا ببرهان ولو قال أن أباك
أقر لفلان بعشرة الدراهم التى خلفها لك وهذا به سجل فيه خط الشهود لقال
ما الحجة فيه وأين الشاهد الحى الذى يشهد به . وأى خبر فى السجل المكتوب
وفى نقل الخطوط . ثم يصدقه فى نقل مذهب من سماه من غير شاهدين يشهدان
على سماعه . ومن غير عرض خط ذلك المذكور . ومن غير عرض تصنيف
من تصانيفه ولو بخط غيره ثم لو سمع ذلك المذكور بإذنه يصرح بذلك
لكان ينبغى أن يتوقف فى القبول زاعما أنه لا برهان عليه وان كان أخذه
تقليداً . فتقليد الانبياء والأولياء والعلماء بل تقليد الجماهير والدهماء من
الخلق أولى من تقليد واحد ليس معصوما من الخطأ فأنت الآن أيها
المسترشد بعد أن عرفت هذه المعتقدات لا يخلو حالك فى اعتقاد الفرقة
الضالة عن أربعة أقسام . اما أن تكون قاطعا ببطلانه أو ظانا لبطلانه أو
ظانا لصحته ظنا غالبا ومجوزا ابطلانه بطريق الامكان البعيد أو قاطعا
بصحته وكيف ما كنت فعقلك يوجب عليك الاشتغال بالعلم والعمل

والاعراض عن ملاذ الدنيا ان سلم عليك عقلك وصحت خيرتك — وذلك لا يخفى ان كنت قاطعا ببطلانه وان كنت تظن بطلانه غالبا تقاضاك عقلك التشمير فى طلبه كما يتقاضى العقل تجشم المصاعب فى ركوب البحر لطلب الربح . وفى تعلم العلم فى أول الشباب لطلب الرياسة عند من يطلبها . وفى نيل الوزارة أو باب من أبواب الكرامة بمقاساة مقدماتها . وعواقب تلك الأمور مظنونة وليست مقطوعا بها بل إذا غلب على ظن الحريص على الدنيا أن الكيميا له وجود ويحتمل عنده عدمها وعلم ان تعب شهر يوصله اليها ان كان لها وجود ثم يتنعم بها بقية عمره الذى يمكن أن يكون أقل من شهر وأن يكون كثيرا تقاضاه عقله أن يحتمل التعب فى ذلك الشهر ويستحقره وان كان معلوماً وعاجلا بالاضافة إلى ما يظنه وان كان آجلا ولم يكن مقطوعا به . وان كنت تظن صحته ظنا غالبا ولكن بقى فى نفسك تجويز صدق الأنبياء والأولياء وجماهير العلماء ولو على بعـــد . فعقلك أيضا يتقاضاك سلوك طريق الأمن واجتناب مثل هذا الخطر الهائل . فانك لو كنت فى جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى فى واحد من محارمه مثلا عملا من الأعمال تظن ظنا غالبا أنه يقع منه موقع الرضى فيعطيك عليه خلعة ودينارا ويحتمل احتمالا على خلاف الظن الغالب أنه يقع منه موقع السخط فينكل بك ويفضحك ويديم عقوبتك طول عمرك . أشار عليك عقلك بأن الصواب أن لا تقتحم هذا الخطر فانك إن فعلت وأصبت فمزيته دينار لا يطول بقاؤه معك وإن اخطأت فنكاله عظيم يبقى معك طول عمرك فليس تفى ثمرة صوابه بغائلة خطئه . ولذلك إذا وجدت طعاما وأخبرك جماعة بأنه مسموم أو شخص واحد حاله دون حال نبى واحد فضلا عن أن يقدر على التأييد بالمعجزة وغلب على ظنك كذبه عما غلب على ظنك الآن كذب الأنبياء كلهم ولكن جوزت مع ذلك صدقه وعلمت أنه ليس فى أكله

إلا التلذذ بطعمه وحلاوته وقت الذوق وإن كان مسموما ففيه الهلاك . فعقلك أيضاً يشير عليك باجتناب الخطر إن كنت من زمرة العقلاء . ولهذا قال على رضى الله تعالى عنه لمن كان يشاغبه ويماريه فى أمر الآخرة إن كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً . وان كان الأمر كما قلت فقد هلكت ونجوت . ولا ينبغى أن تظن أن هذا تشكيك منه فى اليوم الآخر ولكنه زجر على حد جهل المخاطب القاصر عن معرفة ذلك بطريق البرهان وهو الذى جرأنا على سلوك هذا المنهاج ليسهل تأمله على أهل البطالة والتقصير فى الطاعة لله تعالى . وقـــد تبين على القطع أن العظيم الهائل ان لم يكن معلوماً فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر لأن كون الشيء مستحقراً أو عظيما بالاضافة . فلننظر إلى منتهى العمر وما يصفو من الدنيا للمترفهين وتسير إلى ما اعتقده الفرق الثلاث من كمال السعادة الأخروية ودوامها وتعرف بالبديهة استحقار ما ترك من الدنيا فى عظيم ما يعتاض عنها بالاضافة اليها . وان كنت فى الحالة الرابعة وهى اعتقاد صحة مذهب الفرقة الرابعة فنخاطبك على حد جهلك وقصورك بوجهين (أحدهما) انك لم تعتقد هذا المعتقد ببرهان حقيقى ضرورى لا يمكن الغلط فيه حتى يقال تنبهت لنوع من الدليل غفل عنه الأنبياء والأولياء والحكماء وكافة العقلاء . فان الغلط إذا تطرق لهؤلاء مع كثرتهم وغزارة علومهم وطول نظرهم وكثرة معجزات أنبيائهم فماذا تأمن الغلط فى اعتقادك وما الذى عصمك . وأقل درجاتك أن يجوز الغلط على نفسك . وان احتمل عندك صدق الجماهير وغلطك التحقت بالحالة الثالثة . وان لم تتسع نفسك لهذا التجويز حتى زعمت أنك عرفت بطلان اعتقاد الجماهير واستحالة كون النفس جوهراً باقيا بعد الموت أو معاداً بطريق البعث والنشور كما عرفت أن الاثنين أكثر من الواحد وان السواد والبياض لا يجتمعان . فهذا الآن من سوء المزاج وركاكة العقل ويبعد مثل

هذا الأحمق عن قبول العلاج ولمثل هذا قال الله تعالى فيهم (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ﴿الوجه الثانى﴾ ان هذه الفرقة وان أنكروا السعادة الاخروية فلم ينكروا السعادة الدنيوية . وأعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة والمكانة والقدرة والسلامة من الغموم والهموم ودوام الراحة والسرور . وهذا أيضا لا يفوز به الإنسان إلا بالعلم والعمل . أما العلم فليس يخفى دوام العز به إذ لا يقبل العزل والابطال بعزل الولاة وابطالهم. ولا يخفى لذة العالم فى علمه وفيما ينكشف له فى كل لحظة من مشكلات الامور لاسيما إذا كان فى ملكوت السموات والارض والامور الإلهية وهذا لا يعرفه من لم يذق لذة انكشاف المشكلات. ثم انها لذة لانهاية لها لأن العلوم لانهاية لها ولا مزاحمة فيها لأن المعلومات تتسع للطلاب وان كثروا بل استئناس العالم يزيد بكثرة شركائه إذا كان يقصد ذات العلم لا حطام الدنيا ورئاستها . فان الدنيا هى التى تضيق بالمزاحمة بل يزداد سعة بكثرة الطلاب . ثم مع انها أوفى اللذات عند من أنس بها فهى أدومها اذ المنعم بها عليه هو الله وملائكته ولكن عند اكبابه على الطلب وتجرده له — ولذلك لا ترى عاقلا من الرؤساء والولاة إلا وهم فى خوف العزل يتشوقون أن يكون عزهم كعز العلماء. وأما العمل فلسنا نعنى به إلا رياضة الشهوات النفسانية وضبط الغضب وكسر هذه الصفات لتصير مذعنة للعقل غير مستولية عليه ومستسخرة له فى ترتيب الحيل الموصلة إلى قضاء الاوطار . فان من قهر شهواته فهو الحر على التحقيق بل هو الملك — ولذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك ملكى أعظم من ملكك . فقال كيف قال (من أنت عبده عبدى) وأراد به أنه عبد شهواته . وشهواته صارت مقهورة له فعبد الشهوات العاجز عن كسرها وقهرها رفيق وأسير بالطبع لا يزال فى عناء دائم وتعب متواتر ان قضى وطره يوماً عجز عنه أياماً . ثم لا يخلو فى قضائه عن اخطار وعلائق ومشاق ويضطر إلى

تقلدها . فتقليل الشهوات تقليل لأسباب الغموم ولا سبيل إلى اماطتها إلا بالرياضة والمجاهدة وهو المراد بالعمل فاذاً العالم العامل أحسن الناس حالا عند من رأى السعادة مقصورة على الدنيا . فان الدنيا ليست تصفو لأحد وليس يفى جدواها بمشاقها . فالممعن فى اتباع الشهوات والمعرض عن النظر فى المعقولات شقى فى الدنيا باتفاق . وشقى فى الآخرة عند الفرق الثلاث إلا عند شرذمة من الحمقى لا يؤبه لهم ولا يعبأ بهم ولا يعدون فى جملة العقلاء رأساً . فقد تبين أن الاستعداد للآخرة بالعلم والعمل ضرورى فى العقل . وأن المقصر فيه جاهل فان قلت فما بال أكثر الناس مقصرون فيه وهم مؤمنون بالآخرة .

﴿فاعلم﴾ أن سبب ذلك الغفلة عن التفكر فى هذه الامور التى ذكرناها فان تلك الغفلة مطردة عليهم مستغرقة لأوقاتهم لا ينتبهون عنها ما دامت الشهوات متوالية وهى كذلك وانما المنبه عليها واعظ زكى السيرة . وقد خلت البلاد عنه وان فرض على ندور لم يلتفت اليه وان التفت اليه ووقع الاحساس به فى الحال وحسن العزم على التجرد للطاعة فى الاستقبال هجمت عقب ذلك شهوة من الشهوات وأزالت أثر التنبيه وأعادت حجاب الغفلة وعاد العاقل لما نهى عنه ولا يزال هكذا شأن كل واحد إلى الموت . وعند ذلك لا يبقى له إلا التحسر بعد الفوت . ولا يغنى ذلك عنه شيئا . فنعوذ بالله من الغفلة فانها منشأ كل شقاوة .

بيان أن طريق السعادة العلم والعمل

فان قلت قد اتضح لى أن سلوك سبيل السعادة حزم العقلاء . والتهاون بها غفلة الجهال ولكن كيف يسلك الطريق من لا يعرفه . فبماذا أعلم بأن العلم والعمل هو الطريق حتى اشتغل به فلك فى معرفته طريقان (أحدهما) جملى يناسب المنهاج

السابق وهو أن تلتفت إلى ما اتفق عليه آراء الفرق الثلاث وقد أجمعوا على أن الفوز والنجاة لا تحصل إلا بالعلم والعمل جميعا وانا تفقوا على أن العلم أشرف من العمل وكأن العمل متمم له وسائق بالعلم إلى أن يقع موقعه ولأجله قال الله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والكلم الطيب يرجع إلى العلم عند البحث فهو الذي يصعد ويقع الموقع . والعمل كالخادم له يرفعه ويحمله . وهذا تنبيه على علو رتبة العلم . ومذهب الفرقة الأولى وهم المتمسكون بالمفهوم الاول للجماهير من ظواهر الشرع غير خاف على ربطه النجاة بالعلم والعمل وبيانه لا يمكن أن يحصى . والصوفية والفلاسفة الذين آمنوا بالله واليوم الآخر على الجملة وان اختلفوا فى الكيفية كلهم متفقون على أن السعادة فى العلم والعبادة . وإنما نظرهم فى تفصيل العلم والعمل والتوقف مع هذا الاتفاق حمق فمن استولت عليه علة واتفق كتب الأطباء وأقوالهم مع اختلاف أصنافهم على أن النافع لهذه العلة المبردات فتوقف المريض فيه سفه فى عقله بل يقتضى العقل المبادرة اليه . نعم ربما يكون له طريق بعد ذلك الى أن يتحقق ذلك لا عن تقليد للجماهير بل عن تحقيق لحقيقة العلة ووجه مناسبة المبردات لازالتها فينتهض بصيرا إذا نظر واستقل وترقى عن حضيض التقليد والاتباع الى ذروة الاستبصار — فكذلك قد ادعى الصوفية وفرق سواهم أنه يمكن الوصول إلى درك ذلك بالبصيرة والتحقيق وذلك أن تعرف حقيقة الموت وانه يرجع إلى خروج الآلة عن الصلاح للاستعمال لا إلى انعدام المستعمل (ثم تعلم) أن سعادة كل شيء ولذته وراحته فى وصوله الى كماله الخاص به (ثم تعلم) أن الكمال الخاص بالانسان هو إدراك حقيقة العقليات على ما هى عليه دون المتوهمات والحسيات التى يشاركه الحيوان فيها (ثم تعلم) أن النفس بالذات متعطشة اليه . وبالفطرة مستعدة له . وإنما يصرفها عنه اشتغالها بشهوات البدن وعوارضه مهما استولت عليه ومهما كسر الشهوة

وقهرها وخلص العقل عن رقها واستعبادها إياه . واكب بالتفكر والنظر على مطالعة ملكوت السموات والأرض بل على مطالعة نفسه وما خلق فيها من العجائب فقد وصل إلى كماله الخاص . وقد سعد فى الدنيا إذ لا معنى للسعادة إلا نيل النفس كمالها الممكن لها وان كانت درجات الكمال لا تنحصر ولكن لا يشعر بتلك اللذة ما دام فى هذا العالم ممنوعاً بالحس والتخيل وعوارض النفس كالذى عرض للمطعم الالذ وفى ذوقه خدر فيزول فيشعر باللذة المفرطة . فالموت مثل زوال الخدر فقد سمعت مقدما من متبوعى الصوفية يصرح بأن السالك الى الله تعالى يرى الجنة وهو فى الدنيا والفردوس الاعلى معه فى قلبه إن أمكنه الوصول اليه وإنما الوصول اليه بالتجرد عن علائق الدنيا والاكباب بجملة همته على التفكر فى الأمور الالهية حتى ينكشف له بالالهام الالهى جليها — وذلك عند تصفية نفسه عن هذه الكدورات . والوصول إلى ذلك هو السعادة والعمل هو المعين على الوصول اليه . فهؤلاء فرقة ادعوا المعرفة بمناسبة العلم والعمل للسعادة — فهذا هو المنهج الثانى فى الوصول الى اليقين . فما قالوه سديد وهو بزعمهم لا يعرف الا بالمجاهدة والرياضة كما قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فعليك بالمجاهدة والتجرد للطلب . فربما ينكشف لك حقيقة الحال بالنفى أو الاثبات ويكفيك فى الشروع فى العلم والعمل اتفاق الثلاثة عليه إذ لم يكن غرضك من السؤال الجدال بل كان غرضك طلب الفوز كالمريض الذى يطلب الشفاء دون الجدال إذ بغيته اتفاق أصناف الأطباء فيه .

باب تزكية النفس وقواها واخلاقها على سبيل المثال والاجمال

فان قلت قد اتضح لى أن الاشتغال بالعلم والعمل واجب ولكن العلوم كثيرة وكذلك الاعمال فهى مختلفة بالنوع ثم المقدار . وليس يكفى العلم بأن العلة يلائمها المبردات ما لم يعلم نوع المبرد وقدره ووقت استعماله فى الموالاة

أو التفريق الى غير ذلك مما يتطرق الى تفاصيل اضطرارية فلا بد من بيان النوع وبيان الكمية ثم الكيفية فى الاشتغال به .

(فاعلم) أن الناس فيما سألته فريقان . قانع بالتقليد وهو مستغن عن البحث ولكن ينهج السبيل الذى رسمه له مقلده . وفريق آخر لا يقلدون تقليد المريض للطبيب بل يتشوقون الى أن ينالوا رتبة الأطباء . والخطب فى هذا عظيم والمدى طويل وشروط هذا الامر لا تظهر فى الاعصار الا لواحد فرد شاذ . ولكنا ننبئك بما يرقيك عن حضيض التقليد ويهديك الى سواء الطريق . فان ساعدك التوفيق وانبعث من نفسك داعية الاستتمام توصلت اليه بالمجاهدة ولا يمكنك معرفة ما تطلبه الا بأن تعرف أولا نفسك وقواها وخواصها فكيف يشتغل بمخالطة زيد من لا يعرف زيدا والمجاهدة معالجة للنفس بتزكيتها لتفضى الى الفلاح كما قال الله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ومن لم يعرف الثوب لا يتصور منه ازالة وسخه . ولما كان ملاك الامر معرفة النفس عظم الله أمره ونسبه الى نفسه تخصيصا واكراما فقال تعالى (انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) فنبه على أن الانسان مخلوق من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالعقل والبصيرة لا بالحواس وأضاف جسده الى الطين وروحه الى نفسه وأراد بالروح ما نعنيه بالنفس منها لأرباب البصائر ان النفس الانسانية من الامور الآلهية وأنها أجل وأرفع من الاجسام الحسيسة الارضية ولذلك قال تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وقيل كان فى كتب الله المنزلة إعرف نفسك يا انسان تعرف ربك وقال عليه السلام (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) تنبيها على تلازم الأمرين وان نسيان أحدهما مع نسيان الآخر ولذلك قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وقال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون)

وما أراد به ظاهر الجسد فان ذلك يبصره البهائم فضلا عن الناس وعلى الجملة من جهل نفسه فهو بغيره أجهل ومن رحمة الله على عباده ان جمع فى شخص الانسان على صغر حجمه من العجائب ما يكاد بوصفه يوازى عجائب كل العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من هيئة العالم ليتوصل الانسان بالتفكر فيها الى العلم بالله عز وجل فان قلت فصف لى من أمر النفس جملة مشوقة الى التفصيل ان لم تقدر على استقصاء القول فيه حذرا من التطويل (فاعلم) ان للنفس الحيوانية بالجملة قوتين أحدهما محركة والاخرى مدركة والمحركة قسمان باعثة ومباشرة للحركة فالمباشرة للحركة هى القوة التى تنبعث فى الاعصاب والعضلات ومن شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الاوتار والرباطات المتصلة بالاعصاب الى نحو جهة المبدأ أو ترخيها فتصير الاعصاب والرباطات الى خلاف جهة المبدأ وهذه خادمة للمحركة الباعثة . والمراد بالباعثة القوة النزوعية الشوقية التى تبعث على الحركة مهما حصل فى الخيال صورة شىء مطلوب أو مهروب عنه فتحمل القوة المباشرة للحركة على التحريك ولهذه الباعثة شعبتان شعبة تسمى شهوانية وهى تبعث على تحريك يقرب من الاشياء التى يعتقدها صاحبها ضرورية أو نافعة طالبا للذة والاخرى تسمى غضبية وهى قوة تبعث على تحريك يدفع به الشىء الذى يعتقد فيه أنه ضار أو مفسد طالبا للغلبة (وأما المدركة) فقسمان ظاهرة وباطنة أما الظاهرة فهى الحواس الخمس ولسنا نخوض فى تحقيقها وان كان القول فى معرفة حقائقها طويلا جدا ولكن غرضنا ذكر الجملة . وأما الباطنة فخمسة الأولى الخيالية وهى التى تبقى فيها صور الاشياء المحسوسة بعد غيبتها فان صورة المرئى يبقى فى الخيال بعد تغميض العين فتلك القوة التى فيها انطبعت صورة المرئى تسمى خيالية وتسمى حسا مشتركا إذ يبقى فيه أثر مدركات الحواس الخمس كلها . الثانية الحافظة لذلك فان ما يمسك الشخص به صورة الشىء غير ما يقبله به والشمع

يمسك النقش بيبوسته ويقبله برطوبته والماء يقبله ولا يمسكه وهذه القوى أعنى القابلة لمدركات الحواس الخمس والحافظة لها فى التجويف الأول من مقدم الدماغ فهو مسكنها وبحلول آفة فيه تختل هذه القوة وعرف ذلك بعلم الطب (الثالثة) القوة الوهمية وهى قوة مترتبة فى نهاية التجويف الاوسط من الدماغ يدرك معانى غير محسوسة من المحسوسات الجزئية كالقوة الحاكمة فى الشاة بأن الذئب مهروب عنه وان الولد معطوف عليه (الرابعة) الحافظة لهذه المعانى التى ليست محسوسة كما كانت الثانية حافظة للصور فهى حافظة للمعانى وتسمى ذاكرة ومسكنها التجويف المؤخر من الدماغ ولقد بقى الاوسط وهو مسكن القوة المفكرة وهى مرتبة بين خزانة الصور وخزانة المعانى وشأنها ان تركب بعض ما فى الخيال مع بعض وتفصل بعضها عن بعض بحسب الاختيار والعادة جارية بذكر هذا فى القوى المدركة والاولى أن يذكر فى جملة القوى المحركة اذ ليس لها ادراك شىء الا بنوع حركة بتفصيل مركب وتركيب مفصل مما هو حاصل فى الخيال ولا يقدر على وضع شىء مستجد ليس هو موجودا فى الخيال بحال إلا بمجرد التفصيل والتركيب . وهذه القوى التى ذكرناها يشارك فيها الحيوانات الانسان الا المفكرة فان فى الحيوانات شيأ يقاربه يسمى المتخيلة ولا تنتهى قوته إلى حد قوة المتفكرة فى الانسان (وأما النفس الانسانية) من حيث هى انسانية فينقسم قواها الى قوة عالمة وقوة عاملة وقد تسمى كل واحدة منهما عقلا ولكن على سبيل الاسم المشترك اذ العاملة سميت عقلا لكونها خادمة للعالمة مؤتمرة لها فيما ترسم فأما العاملة فهى قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الافعال المعينة الجـــزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العالمة النظرية التى سنذكرها وينبغى أن يكون سائر قوى البدن مقموعة مغلوبة دون هذه القوة العلمية بحيث لا تنفعل هذه القوة عنها

وتلك القوى كلها تسكن وتتحرك بحسب تأديب هذه القوة واشارتها فان صارت مقهورة حدثت فيها هيآت انقيادية للشهوات تسمى تلك الهيآت أخلاقا رديئة وإن كانت متسلطة حصلت لها هيئة استيلائية تسمى فضيلة وخلقا حسنا ولا يبعد أن يجعل الخلق اسما لما يحصل فى سائر الشهوات والقوى من الانقياد والتأدب أو هذه القوة من الاستيلاء والتأديب وبالجملة لا يبعد أن يكون الخلق واحداً وله نسبتان اذ هيئة الاستيلاء من هذه القوة يلازمها هيئة الانقياد من سائر القوى وهو المراد بالخلق المحمود . وبالجملة فالنفس أعز من أن يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بالعقل أو يستدل عليها بآثارها وأفعالها ولها نسبتان نسبة إلى الجنبة التى تحتها ونسبة الى الجنبة التى فوقها ولها بحسب كل جنبة قوة بها ينتظم العلاقة بينها وبين تلك الجنبة فهذه القوة العملية هى القوة التى لها بالقياس إلى الجنبة التى دونها وهى البدن وتدبيره وسياسته وأما القوة العالمة النظرية التى سنذكرها فهى لها بالقياس الى الجنبة التى فوقها لتنفعل وتستفيد منها أعنى بالجنبة الملائكة الموكلة بالنفوس الانسانية لافاضة العلوم عليها فان العلوم انما تحصل فيها من الله تعالى بواسطة قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فكأن للنفس منا وجهين وجه إلى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه مستوليا غير قابل البتة ولا منفعل عن عوارض البدن وشهواته ووجه الى الجنبة الشريفة العالية ويجب أن يكون هذا الوجه دائم القبول عما هنالك مستمدا التأثير فانها مهبط أسباب سعادته وهذه القوة النظرية العالمة هى التى من شأنها أن تتلقى المعانى الكلية المجردة عن العوارض التى تجعلها محسوسة جزئية كما ذكرنا معنى الكلى فى كتاب معيار العلم ثم هذه القوة بالنسبة إلى العلوم التى تحصل فيها على ثلاث مراتب (أولاها) كنسبة حال الطفل الى الكتابة فان الطفل فيه قوة للكتابة ولكن قوة بعيدة

من الفعل فكذا قوة العلم له (المرتبة الثانية) أن يحصل فيها جملة من المعقولات
الأولية الضرورية كحال الصبي المميز المراهق للبلوغ ويكون نحو هذه القوة
للصبي بالاضافة الى الكتابة بعد أن عرف الدواة والقلم والحروف المفردة
دون المركبة فانه لم يكن كذلك فى المهد اذليس فيه على الكتابة الا قوة مطلقة
بعيدة عن الفعل (المرتبة الثالثة) أن تحصل المعقولات الكسبية كلها بالفعل
وتكون كالمخزونة عنده فاذا شاء رجع اليها ومهما رجع تمكن منها وحاله
فى العلوم حال الكاتب الحاذق الصانع الغافل عن الكتابة فانه مستمد لها
بالقوة القريبة استعداداً فى غاية الكمال وهذه نهاية الدرجة الانسانية ولكن
فى هذه الرتبة درجات لا تحصى تختلف بكثرة المعلومات وبقلتها وبشرف
المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها وانها تحصل بالإلهام الالهى وبتعلم
اكتساب وانه سريع الحصول أو بطىء الحصول وفى هذا العلم تتباين منازل العلماء
والحكماء والأولياء والأنبياء وبحسب التفاوت فيه تتفاوت مناصبهم ودرجات
الرقى فيه غير محدودة ولا محصورة واقصى الرتب درجة النبي الذى ينكشف له
كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف الهى فى أسرع
وقت وهذه هى السعادة التى تحصل للانسان تقربه الى الله تعالى تقريبا لا
بالمكان والمسافة ولكن بالمعنى والحقيقة والأدب يقتضى قبض عنان البيان
فى هذا المقام فقد انتهى الأمر بطائفة الى أن ادعوا اتحاداً وراء القرب فقال
بعضهم سبحانى ما أعظم شأنى وقال آخر أنا الحق وعبر آخر بالحلول وعبر
النصارى باتحاد اللاهوت والناسوت حتى قالوا فى عيسى صلوات الله عليه
أنه نصف الله . تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً وبالجملة فمنازل السائرين
الى الله تعالى لا تنحصر وانما يعرف كل سالك المنزل الذى قد بلغه فى سلوكه
فيعرف ما خلفه من المنازل فاما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته الا بطريق
الجملة والإيمان بالغيب فلا يعرف حقيقة النبوة الا النبي وكما لا يعرف الجنين

حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما انفتح له من العلوم الضرورية ولا
المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فلا يعرف عاقل ما انفتح
لأولياء الله وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته (وما يفتح الله للناس من رحمة
فلا ممسك لها) فهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود الالهى غير مضنون بها على
أحد ولكن لا بد من الاستعداد للقبول بتذكية النفس وتطهيرها عن الخبث
والكدورة وكما أن الصورة المتلونة ليس فيها منع من أن تنطبع فى الحديد
الخبيث الا الحجاب من جهة الحديد فى صدئه وخبثه وافتقاره الى صيقل
يجلوه ويزيل خبثه ويجليه فهكذا ينبغى أن تعتقد أن الحجاب من جانبك لا
من جانب الرحمة الالهية ولذلك قال عليه السلام (إن لربكم فى أيام دهركم
نفحات الا فتعرضوا لها) ولذلك عبر عن غاية الجود والبذل من ذلك
الجانب بأدل العبارات على الشوق والرغبة فقال (ينزل الله كل ليلة الى سماء
الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخير فيقول هل من داع فأستجيب له . هل
من مسترحم فأرحمه) وقال (طال شوق الابرار الى لقائى وأنا الى لقائهم
أشد شوقا) وقال (من تقرب إلى شبراً تقربت اليه ذراعاً ومن أتانى يمشى
أتيته هرولة) وعليك أن تستقرىء من القرآن والأخبار ما يناظر ذلك (١)
فانه خارج عن الحصر والاحصاء .

بيان ارتباط قوى النفس بعضها ببعض

اعلم أن هذه القوى متفاوتة الرتب فان بعضها أريدت لنفسها وبعضها
أريدت لغيرها وبعضها خادمة وبعضها مخدومة والرئيس المطلق منها هى التى
تراد لنفسها وتراد غيرها لها وليس ذلك إلا الرتبة الآخيرة وفيها تتفاوت

(١) فمن الاخبار (لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه الحديث) ومنها لولا
أن الشياطين تحوم حول قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض .

وتب الأولياء والأنبياء فان الإنسان لم يخلق إلا لما هو من خاصيته وماعدا القوى المخصوصة بالنفس الانسانية يشاركها فيها الحيوانات فان الانسان خلق على رتبة بين البهيمة والملك وفيه جملة من القوى والصفات فهو من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على حائط وانما خاصته التى لاجلها خلق قوة العقل ودرك حقائق الاشياء فمن استعمل جميع قواه على وجه التوصل بها إلى العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا وكما قال (ان هذا إلا ملك كريم) ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما يأكل الانعام فقد نزل إلى أفق البهائم فيصير اما غمراً كثور واما شرها كخنزير واما صرعة ككلب واما حقوداً كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد . وبالجملة من تصفح القوى التى ذكرناها عرف أن مقتضيات العقل من أرفعها وأعلاها فينظر بعين التعجب كيف يخدم بعضها لبعض خدمة ضرورية عليها فطرت ولا تستطيع مخالفة أمر الله تعالى فيها فان العقل هو الرئيس المخدوم ويخدمه وزيره وهو أقرب الأشياء اليه وهو العقل العملى الذى سميناه قوة عاملة بحسب مراسم العقل لأن العقل العملى لأجل تدبير البدن والبدن آلة النفس ومركبها يقتنص به بواسطة الحواس مبادىء العلوم التى تستنبط منها حقائق الأمور ثم العقل العملى يخدمه الوهم والوهم يخدمه قوتان قوة بعده وقوة قبله . فالقوة التى بعده هى القوة الحافظة لما أدركه وأداه اليه والقوة التى قبله هى جميع القوى الحيوانية على الترتيب الذى سنذكره ومن جملتها المتخيلة أعنى المفكرة ويخدمها قوتان مختلفتا المأخذ فالقوة الرغبية الشوقية تخدمها بالانبعاث لان انبعاثها الى الحركة[1] بالتخيل والفكر والقوة

(١) هكذا بالاصل ولعل الاصح لان انبعاثها إلى التحريك فان الشوقية تبعث على التحريك لا انها تتصف بمباشرة الحركة الجسمانية فتدبر انتهى مصححه .

الحافظة للصور التى فى الحس المشترك تخدمها بقبول التركيب والتفصيل فيما فيها من الصور ثم هذان رئيسان لطائفتين . أما الحافظة للصور فيخدمها المشترك برفع الصور اليها حتى تحفظ . وأما القوة النزوعية فتخدمها الشهوة والغضب . والشهوة والغضب تخدمهما القوة المحركة للعضل وعندها تنتهى القوى الحيوانية والقوى الحيوانية بالجملة يخدمها النباتية والنباتية ثلاث المولدة والمربية والغاذية ورأسها المولدة وتخدمها المربية والغاذية تخدمها ثم يخدم هذه قوى أربع وهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة إذ لا بد فى النبات من قوة جاذبة للغذاء اليه ثم ماسكة ثم هاضمة تهضم ما أمسكته الماسكة ثم دافعة تدفع فضله والدافعة هى الخادمة التى لاخادم لها وكأنها كالكناس فى نظام أمر البلد ثم الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة تخدم القوى الهاضمة والجاذبة والماسكة والدافعة وهذه آخر درجات القوى فى الأجسام وقد ضرب للقوى المذكورة مثال يقربها إلى افهام العوام فقيل القوة المفكرة مسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك يسكن وسط المملكة . والخيالية مسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده إذ تجتمع الاخبار عنده والحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خادمه . والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه . والعاملة جارية مجرى كاتبه . والحواس جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الاخبار الصادقة اللهجة فيما يرفعونه من الاخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذى وكل به إذ البصر وكل بعالم الألوان والسمع بالاصوات وهكذا الجميع . فيرفعون هذه الأخبار إلى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط ما يراه حشواً ويرفع الباقى صافياً إلى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه لخادمه إلى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم باخراجه وكما أن الاعمال التى يتولاها الملك بنفسه أشرف مما يستعمل فيه غيره — فكذلك ما يتولاه النفس التى هى الملك بالحقيقة بواسطة المفكرة من الروية والاعتبار

والقياس والفراسة واستنباط المجهول أشرف مما تستعمل فيه الخدم . وهذا المثال قريب مما روى أن كعب الاحبار قال دخلت على عائشة فقالت الانسان عيناه مهاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريدان والقلب ملك فاذا طاب طاب جنوده[1] فقالت . هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فهذه جمل من أحوال النفس تلوناها عليك على سبيل الاقتصار وانها بعض عجائب النفس . ولو نظرت فى تشريح الاعضاء وخصت عن عدد العروق والاعصاب والعضل والعظام والشرايين والاوردة ثم إلى الاعضاء الآلية التى أعدت للنفس ولجذب الطعام ثم لهضمه ثم لدفعه إلى الآلات التى خلقت للتناسل . ورأيت العجائب فى خدمة بعضها بعضا بالضرورة . ثم بعد فراغك من تشريح الاجسام نظرت فى تفصيل قوى تلك الأجسام واستقصيته بمعرفة حقائق العلوم الطبيعية لقضيت منها آخر العجب . فتعساً لمن كفر بالله وغفل عن قوله (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) بل فى كل شيء دليل على أنه واحد . ومن لم يؤمن بالله على الجملة فليس من العقلاء[2] وهو أخس من أن يخاطب بمثل هذه الكلمات . وإنما كلامنا مع من صدق بالجملة فندعوه إلى البحث عن صنع الله ليزداد بسببه يقينه وإيمانه ويتفاقم به تعظيمه وإجلاله . فكل ما لا يدرك بالحواس وإنما يدرك بالعقل بواسطة آثاره فسبيل استقصاء معرفته استقصاء النظر فى آثاره بل نضرب مثالا يقرب من فهم الخلق كافة . فما من فقيه إلا وقد اعتقد فى المذكورين من العلماء مثل أبو حنيفة والشافعى وغيرهما رتبة تتقاضاه التعظيم — وهذا يشترك فيه الخلق ولكن ليس من يتصفح تصنيف

(١) هكذا بالاصل ولعل الاصح ثم قالت .

(٢) وهذا شبيه بما حكي عن أبي حنيفة وهو قوله لا عذر لاحد فى الجهل بخالقه لما يرى من آثار قدرته

مصنف فيرى فيه عجائب صنعه وبدائع حذقه يبقى اعتقاده فى التعظيم على ما كان عليه قبل معرفته بل لا يزال يطلع على صفة غريبة له فى كلامه وتصنيفه أو شعره ويزداد نفسه له تعظيما وتوقيراً واعتقاداً . فمن عرف أن الله صانع العالم كمن عرف أن زيدا متميز عن غيره بكونه ناظم ديوان ومصنف كتاب وأين هذا من اعتقاد من تصفح الشعر فرأى فيه عجائبه وطالع التصنيف وهو من أهل الفضل فرأى فيه غرائبه . فهذا يعتقد عظمته ورتبته اعتقادا راسخا عن تحقيق وبصيرة . والآخر يعتقد اعتقادا مجملا ضعيفا غير مدرك بالبصيرة والتحقيق — وهذا فرق بين رتبة العـــوام وذوى البصائر فى هذا الامر الواحد والعالم بما فيه من العجائب تصنيف الله وتأليفه وإبداعه واختراعه والنفس جزء من اجزاء العالم وكل جزء من أجزاء العالم مشحون بالعجائب فلا يزال الباحث عنها مستفيدا زيادة اعتقاد وتأكيد إيمان ولذلك حث الله[1] على التفكر فى الانفس والآفاق وملكوت السموات والارض .

بيان نسبة العمل من العلم وانتاجه السعادة التى اتفق عليها المحققون من الصوفية بأجمعهم وساعدهم من النظار طوائف سواهم

إن تأثير العمل لإزالة مالا ينبغى والسعى فى العلم سعى فى تحصيل ما ينبغى وإزالة مالا ينبغى شرط لتفريغ المحل لما ينبغى والمشروط هو المقصود وهو أشرف من الشرط . ومثاله من أراد استيلاد امرأة بها علة تمنع العلوق فعليه وظيفتان (احداهما) اماطة العلة المفسدة للحمل المانعة من العلوق (والاخرى) ايداع النطفة بعد إزالة العلة المانعة . فالاولى شرط للثانية . والثانية هى الغاية المطلوبة . وإذا فرضت داراً بنيت لملك رتبة تلك الدار

(١) ومن ثم لما نزلت ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب قال عليه السلام ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها

نزول الملك فيها . وقد اغتصبها القردة والخنازير . فجمال تلك الدار وكمالها موقوف على أمرين (أحدهما) ازعاج القردة النازلين فيها بغير حق (والآخر) نزول المستحق . وإذا فرضنا مرآة صدئة قد ستر الخبث صفاءها ومنع انطباع صورنا فيها . فكمال المرآة أن تستعد لقبول الصور فتحكيها كما هى عليها . وعلى مكملها وظيفتان (احداهما) الجلاء والصقل وهى إزالة الخبث الذى ينبغى أن لا يكون (والثانية) ان يحاذى بها نحو المطلوب حكاية صورته[1] فكذلك نفس الآدمى مستعدة لان تصير مرآة يحاذى بها شطر الحق فى كل شىء فتنطبع به كأنها هو من وجه وان كانت غيره من وجه آخر كما فى الصورة والمرآة وكمالها فى مثل هذه الدرجة وهذه الخاصة هى التى فارقت بها ما تحتها من الحيوانات إذ هذا الاستعداد مسلوب عن الحيوانات كلها سوى الآدمى بالقوة والفعل جميعا كما انسلب عن التراب والخشب الاستعداد لحكاية الصور وأن يكون مرآة لها وهو موجود بالفعل أبدا للملائكة لا يفارقها كما أنه موجود للماء الصافى فانه يحكى الصورة بطبعه حكاية مخصوصة وهو موجود للآدمى بالقوة لا بالفعل . فان جاهد نفسه التحق بأفق الملائكة . وان استمر على الأسباب الموجبة لتراكم الخبث على مرآة النفس باتباع الشهوات اسود قلبه وتركمت ظلمته وبطل بالكلية استعداده والتحق بأفق البهائم وحرم سعادته وكماله حرمانا أبديا لا تدارك له فاذا العمل معناه كسر الشهوات بصرف النفس عن صوبها إلى الجنبة العالية الإلهية ليمحى عن النفس الهيئات الخبيثة والعلائق الردية التى ربطتها بالجنبة السافلة حتى إذا محقت تلك العلائق أو ضعفت حوذى بها نحو النظر فى الحقائق الإلهية ففاضت عليه من جهة الله تعالى تلك الأمور الشريفة كما فاضت على الأولياء والأنبياء والصديقين — وذلك صيد ينفق على قدر الرزق وبأحكام الأصل فيه يزيد

(١) قوله حكاية نائب فاعل لاسم المفعول قبله وهو لفظ المطلوب .

الاسترزاق كما يعرض من زيادة الاسترزاق بالأسباب فى اقتناص الصيد بل فى اقتناص الربح والتجارة بل فى اقتناص فقه النفس . فان القليل الاجتهاد قد يجاوز حد المجتهدين بمزيد ذكاء فطرى فكذا طهارة النفس عن هذه العلائق فى أول الفطرة فى غاية الاختلاف . ثم الجهد أيضا يختلف وينشأ من ذلك تفاوت لا ينحصر — فكذا سعادة الآخرة . ففيضان هذه الرحمة من الله عز وجل على النفس غاية المطلوب وهو عين السعادة التى للنفس بعد الموت ولكنها مشروطة بازالة العلائق ومحو الصفات الردية التى تأكدت للنفس باتباع الشهوات . فاذا العمل يرجع إلى مجاهدة النفس بازالة ما لا ينبغى. وإذا نسب إلى اتباع الشهوات ظهرت فضيلتها . وإذا نسب إلى تحصيل ما ينبغى كانت رتبتها منه مرتبة الشرط من المشروط والخادم من المخدوم وما أريد لغيره بالنسبة إلى ما أريد لنفسه . وعليه نبه النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال (الإيمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى من الطريق) والمجاهدة بالعبادات أكثر أغراضها إماطة الأذى عن الطريق . ولقائل أن يقول المراد بالحديث التقاط الزجاج والعظم والحجارة من الشوارع وان هذا هو السابق إلى فهم الاكثرين . ولقائل آخر أن يقول ان الناس يتفاوتون فى فهم معانى الألفاظ على حسب تفاوت رتبهم — ولذلك قال عليه السلام (نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ثم أداها كما سمعها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) فلولا أن فى ألفاظه ما يسبق إلى فهم غير الفقيه خلاف ما يسبق إلى فهم الفقيه لما أكد الوصية بذلك . ثم ليت شعرى إذا عينت الكثرة هل يوجد الحق فى جانب الفقيه أو الأفقه أو فى جانب غيرهم . ولا شك أن هذا عزيز نادر والغالب خلافه . فالسابق إلى فهم الجماهير يكاد الحق يجانبه وينحاز إلى ما يفهمه الفقيه والأفقه لاسيما فى لفظ لا يصرح بالتخصيص فان لفظ الأذى عام ولفظ الطريق عام . ولو أريد

الخاص لذكر الزجاج أو المدر ونبه به على أمثاله — وذلك الظاهر أيضا مندرج تحت العموم فانه بذلك العمل أيضا مصلح نفسه ومهذب خلقه ومميط عن النفس رذيلة الغفلة والقساوة وقلة الشفقة على ما سنذكره فى تفصيل سوء الاخلاق وحسنها . فقد عرفت أن سعادة النفس وكمالها أن تنتقش بحقائق الأمور الإلهية وتتحد بها حتى كأنها هى وان ذلك لا يكون إلا بتطهير النفس عن هيئات ردية تقتضيها الشهوة والغضب . وذلك بالمجاهدة والعمل فالعمل للطهارة والطهارة شرط ذلك الكمال . ولذلك قال عليه السلام بنى الدين على النظافة .

بيان مفارقة طريق الصوفية فى جانب العلم طريق غيرهم

اعلم أن جانب العمل متفق عليه وانه مقصود لمحو الصفات الردية وتطهير النفس من الأخلاق السيئة ولكن جانب العلم مختلف فيه وتباين فيه طرق الصوفية طرق النظار من أهل العلم فان الصوفية لم يحرضوا على تحصيل العلوم ودراستها وتحصيل ما صنفه المصنفون فى البحث عن حقائق الامور بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكل الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك فاضت عليه الرحمة وانكشف له سر الملكوت وظهرت له الحقائق وليس عليه إلا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار النية مع الارادة الصادقة والتعطش التام والترصد بالانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة إذ الاولياء والأنبياء انكشف لهم الأمور وسعدت نفوسهم بنيل كمالها الممكن لها لا بالتعلم بل بالزهد فى الدنيا والاعراض والتبرى عن علائقها والاقبال بكل الهمة على الله تعالى . فمن كان لله كان الله له حتى أن فى الوقت الذى صدقت فيه رغبتى لسلوك هذا الطريق شاورت متبوعا مقدماً من الصوفية فى المواظبة على تلاوة القرآن

فمنعنى وقال السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية بل تصير إلى حالة يستوى عندك وجودها وعدمها . ثم تخلو بنفسك فى زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب مجموع الهم مقبلا بذكرك على الله تعالى . وذلك فى أول الامر بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى فلا تزال تقول (الله الله) مع حضور القلب وادراكه إلى أن تنتهى إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده . ثم تصير مواظباً عليه إلى أن يمحى أثر اللسان فتصادف نفسك وقلبك مواظبين على هذا الذكر من غير حركة اللسان . ثم تواظب إلى أن لا يبقى فى قلبك إلا معنى اللفظ . ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة بل يبقى المعنى المجرد حاضراً فى قلبك على اللزوم والدوام . ولك اختيار إلى هذا الحد فقط . ولا اختيار بعده لك إلا فى الاستدامة لدفع الوساوس الصارفة . ثم ينقطع اختيارك فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء وهو بعض ما يظهر للأنبياء قد يكون أمراً كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر فان عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وان يثبت امتد ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد لا يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى لتفاوت خلقهم وأخلاقهم . فهذا منهج الصوفية . وقد ردوا الأمر إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط . وأما النظار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وافضاه إلى المقصد وهو أكبر أحوال الأولياء والأنبياء . ولكن استوعروا هذا الطريق واستبعدوا إفضاه إلى المقصود . وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد بالاجتهاد كالممتنع وان حصل فى حالة فثباته أبعد منه وأدنى وسواس وخاطر يشوش . وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل

ويمرض البدن ويفضى إلى الماليخوليا . فاذا لم تكن النفس قد ارتاضت
بالعلوم الحقيقية البرهانية اكتسبت بالخاطر خيالات تظنها حقائق تنزلت
عليها . فكم من صوفى بقى فى خيال واحد عشر سنين إلى أن تخلص عنه
ولو كان قد أتقن العلوم أولا لتخلص منه على البديهة . فالاشتغال بتحصيل
العلوم بمعرفة معيار العلم وتحصيل براهين العلوم المفصلة أولى فانه يسوق إلى
المقصود سياقة موثوقا بها كما يوثق بالاجتهاد فى أن يحصل فقه النفس . وقد
كان عليه السلام فقيه النفس من غير اجتهاد لكن لو أراد مريد أن ينال
رتبته بمجرد الرياضة فقد توقع توقعا بعيدا فيجب تحصيل نفس العلوم الحقيقية
فى النفس بطريق البحث والنظر على غاية الامكان . وذلك بتحصيل ماحصله
الاولون أولا . ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف بالانتظار للخلق
الباحثين عن الامور الإلهية فما لم ينكشف للخلق أكثر مما انكشف . وهذا تباين
الفريقين . وقد خطر لى مثال لا يبعد أن يكون منبها للافهام الضعيفة المفتقرة
إلى الأمثلة المحسوسة فى درك الحقائق العقلية ومعرفا لوجه الفرق بين الفريقين .
فقد حكى أن أهل الصين والروم تباهوا بحسن صناعة النقش والتصوير بين
يدى بعض الملوك . فاستقر رأى الملك على أن يسلم اليهم صفة ينقش أهل
الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ويرخى بينهم حجاب بحيث لا يطلع كل
فريق على صاحبه . فاذا فرغوا رفع الحجاب ونظر إلى الجانبين وعرف
رجحان من رجح من الفريقين ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الاصباغ
الغريبة مالا ينحصر . ودخل أهل الصين وراء الحجاب من غير صبغ وهم
يجلون جانبهم ويصقلونه والناس يتعجبون من توانيهم فى طلب الصبغ . فلما
فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين انا أيضا قد فرغنا . فقيل لهم كيف فرغتم
ولم يكن معكم صبغ ولا اشتغلتم بنقش . فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجاب
وعلينا تصحيح دعوانا فرفعوا الحجاب وإذا بجانبهم وقد تلألأ فيه جميع

الاصباغ الرومية الغريبة إذ كان قد صار كالمرآة لكثرة التصفية والجلاء
فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء وظهر فيه ماسعى فى تحصيله غيرهم فقدر
كأن النفس محل نقش العلوم الالهية . ولك فى تحصيله طريقان (أحدهما)
تحصيل عين النقش كطريق أهل الروم (والثانى) الاستعداد لقبول النقش
من خارج والخارج ههنا اللوح المحفوظ ونفوس الملائكة فانها منقوشة
بالعلوم الحقيقية نقشا بالفعل على الدوام كما أن دماغك منقوش بالقرآن
كله إن كنت حافظا له — وكذلك جملة علومك لانقشا يحس ويبصر ولكن
نوعا من الانتقاش عقليا ينكره من اقتصرت به خساسة نفسه على
المحسوسات ولم يترق عنها .

بيان الأولى من الطريقين

فان قلت فقد مهدت للسعادة طريقين متباينين فأيهما أولى عندك (فاعلم) أن
الحكم فى مثل هذه الأمور بحسب الاجتهاد الذى يقتضيه حال المجتهد ومقامه
الذى هو فيه . والحق الذى يلوح لى والعلم عند الله فيه ان الحكم بالنفى أو
الاثبات فى هذا على الاطلاق خطأ بل يختلف بالاضافة الى الاشخاص
والأحوال . فكل من رغب فى السلوك فقد كبر شأنه . فالأولى به أن يقتنع
بطريق الصوفية وهو المراظبة على العبادة وقطع العلائق فان البحث عن
العلوم الكسبية لتحصل ملكة ثابتة فى النفس شديد ولا يتيسر إلا فى عنفوان
العمر . والتعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر . ومن العناء رياضة الهرم . وقيل
لأحد الاكابر من أراد أن يتعلم شيخا ما يفعل . فقال اغسل مسحا
فمساه يبيض . وقد خرج من هذا أن الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل
والاقتصار من العلم على القدر الذى يعرف به العمل فان الأكثر لا ينتبهون
لهذا الامر فى عنفوان الشباب وان تنبه فى عنفوان شبابه نظر إلى طبعه

وذكائه . فان علم انه لا يستعد لفهم الحقائق العقلية الدقيقة وجب عليه أن يشتغل بالعمل أيضا فلا فائدة فى اشتغاله بالعلوم النظرية وهم الاكثرون . من الأول الذى تتبعناه فان كان زكيا قابلا للعلوم فان لم يكن فى بلده أو فى العصر مستقل بالعلوم النظرية مترق عن رتبة تقليد من سبقه فالاولى به العمل فان هذه لا يمكن تحصيلها الا بمعلم فليس فى القوة البشرية فى شخص واحد الوصول اليها الا قليل بطول الزمن — ولذلك لو لم يكن علم الطب مثلا صار مقننا مرتبا متقنا بالخواطر المتعاونة فى الازمنة المتطاولة لافتقر أزكى الناس إلى عمر طويل فى معرفة علاج علة واحدة فضلا عن الجميع . والغالب فى البلاد الخلو عن مثل هذا العالم المستقل . فإذاً لم يبق إلا قليل من قليل وهو زكى تنبه فى عنفوان عمره لهذا الأمر وهو مستعد لفهم العلوم وصادف عالما مستقلا بالعلوم تحقيقا لا اسما وحسبة لا رسما كما ترى من أكثر العلماء . فهم اما مقلدون فى أعيان المذاهب أو فى أعيان المذاهب وأدلة تلك المذاهب جميعا على الوجه الذى تلقونه من أرباب المذاهب . ومن قلد أعمى فلا خير فى متابعة العميان وأتباعهم . أو شاب نشأ فى طلب العلم وهو زكى فى نفسه وتنبه له بعد الارتياض بأنواع العلوم ولكن بهذا النوع من العلم الذى تنبه له . فمثل هذا الشخص مستعد للطلب يتعين جميعا . فالاولى به أن يقدم طريق التعلم فيحصل من العلوم البرهانية ما للقوة البشرية ادراكه بالجهد والتعلم فقد كفى المؤنة فيه تعب من قبله . فاذا حصل ذلك على قدر امكانه حتى لم يبق علم من جنس هذه العلوم الا وقد حصله فلا بأس بعده أن يؤثر الاعتزال عن هذا الخلق والإعراض عن الدنيا والتجرد لله وأن ينتظر فعساه أن ينفتح له بذلك الطريق ما التبس على سالكى هذا الطريق — هذا ما أراه والعلم عند الله . وقد يخرج منه أن الصواب لأكثر الخلق الاشتغال بالعملى . ومن العمل العلم العملى أعنى ما يعرف به كيفيته . فان العلم العملى

ليس بأشرف من العمل بل هو دونه فانه مراد له دون العلم الذى يراد منه المعلوم كالعلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالنفس وصفاتها . والعلم بملكوت السموات والأرض وغيره . فهذه العلوم نظرية وليست بعملية وان كان قد ينتفع بها فى العمل على سبيل العرض لا على سبيل القصد ولكون الصواب فى العمل لأكثر الخلق استقصاه النبى ﷺ تفصيلا وتأصيلا حتى علم الخلق الاستنجاء وكيفيته ولما آل الأمر إلى العلوم النظرية أجمل ولم يفصل ولم يذكر من صفات الله الا أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .. نعم بعد اجمال العلم ذكر من تعظيمه وتشريفه وتقديمه على العمل ما لا يكاد يحصى كقوله (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وكقوله (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر) إلى غير ذلك مما ورد فيه . ثم ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو اما أن يكون هو العلم بكيفية العمل وهو الفقه وعلم العبادات . واما أن يكون علما سواه . وباطل أن يكون الاول هو المراد لوجهين (أحدهما) أنه فضل العالم على العابد . والعابد هو الذى له العلم بالعبادة والا فهو عابث فاسق (والثانى) أن العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل لأن العلم العملى لا يراد لنفسه وانما يراد للعمل وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه .

بيان جنس العلم والعمل الموصلين إلى جنة المأوى

فان قلت العلوم أصنافها كثيرة والأعمال وأنواعها مختلفة وليس الكل مطلوبا فما الصنف النافع حتى أشتغل به (فأقول) أما العلم فنقسم إلى العملى والنظرى . أما النظرى فكثير ولكن كل علم يتصور أن يختلف بالأعصار والبلدان والامم فلا يورث كمالا يبقى فى النفس أبد الدهر ونحن نبتغى من العلم تبليغ النفس كمالها لتسعد بكمالها مبتهجة بما لها من البهاء والجمال أبد

الدهر . فخرج عن هذا البيان العام باللغات وموجبات الألفاظ كالعلم باللغة
والاعراب والنحو والشعر والترسل وشرح الألفاظ وتفصيلها . فان افتقر
إلى شيء منها فيطلب لا لنفسه بل ليكون ذريعة للعلم المقصود ولكننا الآن في
بيان العلم المقصود فانا ان نعرّف ذات الحج لم يلزمنا ذكر الخف والمطهرة وان
كان يحتاج اليهما فى التوصل اليه . وانما نميز العلوم التى تبقى معلوماتها أبد
الآبدين لا تزول ولا تحول . ومثل ذلك لا يختلف باختلاف الأعصار
والامم — وذلك يرجع إلى العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله
وملكوت السموات والارض وعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من
حيث أنها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها . فالمقصود
الأقصى العلم بالله . وملائكة الله لا بد من معرفتهم لانهم واسطة بين الله
وبين النبي — وكذا معرفة النبوة والنبي لان النبي واسطة بين الخلق والملائكة
كما أن الملك واسطة بين الله والنبي — وهكذا يتسلسل إلى آخر العلوم
النظرية . وغايتها وأقصاها العلم بالله عز وجل ولكن يتشعب القول فيه
اشتعابا كثيراً إذ يدل بعضها على بعض — ولذلك يكثر التفصيل فيه
(القسم الثانى) العلم العملى وهو ثلاثة علوم علم النفس بصفاتها وأخلاقها
وهو الرياضة ومجاهدة الهوى وهو أكبر مقصود هذا الكتاب وعلمها بكيفية
المعيشة مع الأهل والولد والخدم والعبيد فانهم خدمك أيضا كأطرافك
وابعاضك وقواك . وكما لا بد من سياسة قوى بدنك من الشهوة والغضب
وغيرهما فلا بد من سياسة هؤلاء . وعلم سياسة أهل البلد والناحية
وضبطهم ولاجله يراد علم الفقه فى الأكثر إلا ما يتعلق بربع العبادات
من جملة العبادات الخاصة بالنفس . ومنه آداب القضاء ولا يتم إلا بمعرفة
ربع النكاح والبيع والخراج . وأهم هذه الثلاثة تهذيب النفس وسياسة
البدن ورعاية العدل من هذه الصفات حتى إذا اعتدلت تعدت عدالتها الى

الرعية البعيدة من الأهل والولد . ثم إلى أهل البلد فكلكم راع وكلكم
مسئول عن رعيته . وما سواه يجرى منه مجرى الزكاة من النصاب والوضوء
من الشمس والظل من الشخص وكيف يتوقع استقامة الظل مع اعوجاج ذى
الظل . فإذا لم يقدر الانسان على سياسة نفسه وضبطها فكيف يقدر على
سياسة غيره . فهذه مجامع العلوم العملية . ولنذكر جل العلم الأخص من
هذه العلوم السياسية فانه المقصود بالبيان . ومجامع القوى التى لا بد من
تهذيبها ثلاث . قوة التفكر وقوة الشهوة وقوة الغضب . ومهما هذبت قوة
الفكر وأصلحت كما ينبغى حصلت بها الحكمة التى أخبر الله عنها حيث قال
(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وثمرتها أن يتيسر له الفرق
بين الحق والباطل فى الإعتقادات وبين الصدق والكذب فى المقال وبين
الجميل والقبيح فى الأفعال . ولا يلتبس عليه شيء من ذلك مع أنه الأمر
الملتبس على أكثر الخلق . ويعين على اصلاح هذه القوة وتهذيبها ما أودعناه
معيار العلم (والقوة الثانية) هى الشهوة وباصلاحها تحصل العفة حتى تنزجر
النفس عن الفواحش وتنقاد للمواساة والإيثار المحمود بقدر الطاعة (والثالثة
الحمية الغضبية) وبقهرها واصلاحها يحصل الحلم وهو كظم الغيظ وكف
النفس عن التشفى وتحصل الشجاعة وهى كف النفس عن الخوف والحرص
المذمومين فى كتاب الله تعالى . ومهما أصلحت القوى الثلاث وضبطت على
الوجه الذى ينبغى وإلى الحد الذى ينبغى وجعلت القوتان منقادتين للثالثة
التى هى الفكرية العقلية فقد حصلت العدالة . وبمثل هذا العدل قامت
السموات والأرض وهى جماع مكارم الشريعة وطهارة النفس وحسن
الخلق المحمود بقوله عليه السلام (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم اخلاقا
وألطفهم بأهله) وقوله عليه السلام (أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقا الموطؤن
أكنافا الذين يألفون ويؤلفون) وثناء الشرع على الخلق الحسن خارج عن

الحصر ومعناه اصلاح هـــذه القوى الثلاث . وقد جمعه الله سبحانه فى قوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فدل بالإيمان بالله ورسوله مع نفى الارتياب على العلم اليقينى والحكمة الحقيقية التى لا يتصور حصولها إلا باصلاح قوة الفكر . ودل بالمجاهدة بالأموال على العفة والجود اللذين هما تابعان بالضرورة لإصلاح الشهوة . ودل بالمجاهدة على الشجاعة والحلم اللذين هما تابعان لاصلاح الحمية واسلاسها للدين والعقل حتى تنبعث مهما انبعث وتسكن مهما سكن . وعليـــه دل قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال عليه السلام فى تفسيره (هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك وتحسن لمن أساء إليك) فالعفو عمن ظلمك هو نهاية الحلم والشجاعة . واعطاء من حرمك هو نهاية الجود . ووصل من قطعك هو نهاية الإحسان .

بيان مثال النفس مع هذه القوى المتنازعة

مثل نفس الإنسان فى بدنه كمثل وال فى مدينته ومملكته . وقواه وجوارحه الخادمة للبدن بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل . والشهوة له كعبد سوء يجلب الميرة والطعام والحمية كصاحب شرطته والعبد الجالب للميرة مكار خداع خبيث ملبس يتمثل بصورة الناصح . وتحت نصحه الداء العضال والشر الشمر [1] وديدنه منازعة الوزير فى التدبير حتى لا يغفـــل عن منازعته ومعارضته فى آرائه ساعة . فكما أن الوالى فى مملكته متى استشار فى تدبيراته لوزيره معرضا عن اشارة هذا العبد الخبيث بل مستدلا باشارته على أن الصواب فى نقيضه

(١) الشمر بوزن الفلز الشديد قال فى القاموس شر شمر بوزن فلز أى شديد انتهى

رأيه وأدب صاحب شرطته وأسلسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث واتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ومأموراً مدبراً لا آمراً مدبراً استقام أمر بلده وانتظم لقيام العدل بسببه كذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدبت الحمية الغضبية وسلطتها على الشهوة واستعانت بالعقل على الاخرى تارة بأن تقلل من تيه الغضب وغلوائه بخلابة الشهوة واستدراجها وتارة تقمع الشهوة وتقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها استشاطة عليها اعتدلت قواه وحسنت أخلاقه . ومن عدل عن هذه الطريقة فهو كما قال الله تعالى (أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم) وقال واتبع هواه فمثله كمثل الكلب وقال عليه السلام (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) وقال تعالى لمن قهر هواه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) وليس الامر كما ظنه فريق من لزوم قمع الغضب واماتته بالكلية وقلع الشهوة واماتتها بالكلية بل الواجب ضبطها وتأديبها فان العقل لا يقدر على التأديب دون الحمية الغضبية إذ ليس له إلا الإشارة بالصواب وهو أشرف القوى . وبه صار الإنسان خليفة الله فى أرضه ولكنه كطبيب مشير إلى ما فيه البر فان لم يستعن بالغضب والحمية التى ترهق الشهوة إلى الطاعة وتنتهض خادمة للعقل فى الزجر والكسر لم تنفذ اشارته — ولذلك لا يتبين فضيلة العقل لمن لا حمية له ولكن ينبغى أن يتأدب بحيث لا ينبعث إلا باشارة العقل . وكذلك الشهوة فان اماتتها عن الجماع عسرة وقاطعة للتناسل الذى به بقاء النوع وعن الطعام صعب وينقطع به بقاء الشخص ولكن يكسر الشره فى الطعام حتى لا يكون المقصود من الطعام التلذذ بالتناول بل استيفاء القوة للتوصل به إلى العلم والعمل فيكون هو فى أكله كهو فى اعلافه دابته إذا انتهض للجهاد لمقصوده التوصل فقط ويود لو استغنى عن الطعام وبقيت قوته على العلم

والعمل (مثال آخر) الإنسان حيث خلق بنفسه عالماً كبيراً فى المعنى صغيراً فى الحجم. فبدنه كمدينة وعقله كملك مدبر لها. وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده. وأعوانه وأعضاؤه كرعيته. والنفس الامارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى إهلاك رعيته. فصار بدنه كرباط وثغر. ونفسه كمقيم فيه مرابط فان جاهد عدوه وأسره وقهره على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى حضرته تعالى كما قال (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى) وان ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره وانتقم منه عند لقاء الله تعالى. وقال الله يوم القيامة كما ورد فى الخبر (يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك) وهذا الجهاد ذكره باللسان مفرح وغذاء للروح. وتحقيقه بالعمل بالحقيقة هو نزع الروح. ولن يعرف ذلك إلا من طالب نفسه بترك شهواته. ولذلك قالت الصحابة رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فسموا مجاهدة الكفار بالسيف الجهاد الاصغر. وكذلك سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الجهاد أفضل يارسول الله فقال عليه السلام (جهادك هواك) ولذلك قال ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من ملك نفسه عند الغضب (مثال آخر) مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضا وكلبه مؤدباً معلماً منقاداً صار حريا بالنجح. ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب.

بيان مراتب النفس فى مجاهدة الهوى والفرق بين إشارة الهوى والعقل

اعلم أن للانسان فى مجاهدة الهوى ثلاثة أحوال (الأولى) أن يغلبه الهوى فيملكه ولا يستطيع له خلافاً وهو حال أكثر الخلق وهو الذى قال الله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) إذ لا معنى للاله إلا المعبود. والمعبود هو المتبوع إشارته. فمن كان تردده فى جميع أطواره خلف أغراضه البدنية وأوطاره فقد اتخذ إلهه هواه (الثانية) أن يكون الحرب بينهم سجالا تارة لها اليد وتارة عليها اليد — فهذا الرجل من المجاهدين. فإن اخترمته المنية فى هذه الحالة فهو من الشهداء لانه مشغول بامتثال قوله صلى الله عليه وسلم (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم) وهذه الرتبة العليا للخلق سوى الأنبياء والاولياء (الثالثة) أن يغلب هواه فيصير مستولياً عليه لا يقهره بحال من الاحوال وهذا هو الملك الكبير والنعيم الحاضر والحرية التامة والخلاص عن الرق ولذلك قال عليه السلام (ما من أحد إلا وله شيطان ولى شيطان وان الله قد أعانى على شيطانى حتى ملكته) وقال فى حق عمر ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجا غيره. وهذا الآن مزلة قدم. فكم من إنسان يظن أنه نال هذه الرتبة وهو فى الحقيقة شيطان مريد فانه يتبع اغراضه ولكن يتعلل لاغراضه أنها من الدين وان طلبه لها لاجل الدين حتى رأيت جماعة اشتغلوا بالوعظ والتدريس والقضاء والخطابة وأنواع الرياسة وهم فيه متبعون للهوى. ويزعمون أن باعثهم الدين ومحركهم طلب الثواب ومنافستهم عليها من جهة الشرع وهى نهاية الحق والغرور. وانما يعرف حقيقة ذلك بأمر وهو أن الواعظ المقبول إن كان يعظ لله لا لطلب القبول وقصده دعوة الخلق إلى الله. فعلامته أنه لوجلس على مكانه واعظ أحسن منه سيرة وأغزر منه علما وأطيب منه لهجة وتضاعف قبوله

الناس له بالنسبة إلى قبوله فرح به وشكر الله على اسقاط هذا الفرض عنه بغيره وبمن هو أقوم به منه كمن تعين عليه جهاد كافر وقتله لارتداده . فنزلت بالكافر صاعقة أحرقته وكفى مؤنته والجهاد معه فرح به وشكر الله تعالى . وهذه الحالة لا يصادفها من نفسه إلا الأولياء وتكون إحدى آثارها الاحتراز أقصى الإمكان كل ساعة وتصريحه بقوله اقتلونى فلست بخيركم كما نقل عن الصديق رضى الله عنه . فان قلت فاذا كنا لا نأمن مثل هذا التلبيس والخداع بتزوير الشيطان والتدلى بحبل الغرور كما حكى عن هؤلاء فبم نميز بين إشارة العقل وإشارة الهوى (فاعلم) أن هذا مطلب عويص ولا خلاص عنه إلا بالعلوم الحقيقية ولا مغنى فيه مثل ما أودعناه معيار العلم إذ به ينكشف التلبيس عن الحق ولكن القدر الذى ينبغى أن يفزع اليه عند التحير أن يعلم أن العقل فى أكثر الامر يشير بالاصلح للعواقب وان كان فيه كلفة ومشقة فى الحال . والهوى يشير بالاستراحة وترك التكلف . فمهما عرض لك أمر ولم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه . فأكثر الخير فى الكراهة قال عليه السلام (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) فكلما يشير عليك بالدعة والرفاهية وحظر التكلف وإيثار الراحة فى الحال فاتهم فيه نفسك فان حبك الشىء يعمى ويصم . وبالجملة فما يشير إليه العقل بقوته افزع إلى العبادة والاستخارة فيه حتى ينشرح الصدر ويعضده الاستشارة إذا استشير فيه أهله . وأكثر ما يلبس به الهوى معاذير مزخرفة . والعقل يرشد بحجج حقيقية والعاشق لشخص قبيح أو المتناول لطعام بشع شغف به لعادته لو روجع لزخرف فيه معاذير مموهة يشهد عليه العقل بأنه متصنع متكلف . وبالجملة إدراك هذه الحقيقة لا يكون إلا بنور إلهى وتأييد سماوى

فليكن الفزع إلى الله فى مظان الحيرة . فقد قال بعض العلماء إذا مال العقل إلى مؤلم فى الحال نافع فى العاقبة ومال الهوى نحو نقيضه الملذ فى الحال الوخيم فى العقبى وتنازعا وتحاكما إلى القوة المدبرة المفكرة سارع نور الله تعالى إلى نصرة العقل وبادر وسواس الشيطان وأولياؤه إلى نصرة الهوى وقام صف القتال بينهما . فان كانت القوة المدبرة من حزب الشيطان وأوليائه ذهلت عن نور الحق وعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل وجنحت إليه وقهر أولياء الله وإن كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بالعاجلة وطلبت الآجلة قال الله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وشبه الله العقل بشجرة طيبة والهوى بشجرة خبيثة فقال (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) الآية فعند قيام الصف والتحام القتال بين هذين الجندين اللذين أحدهما من أعداء الله والآخر من أوليائه لا سبيل إلا إلى الفزع إلى الله تعالى والاستعاذة من الشيطان الرجيم كما قال تعالى (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فان قلت فهل من فرق بين الهوى والشهوة . قلنا لا حجر فى العبارات ولكن نعنى بالهوى المذموم من جملة الشهوات دون المحمود . والمحمود من فعل الله تعالى وهى قوة جعلت فى الإنسان لتنبعث بها النفس لنيل ما فيه صلاح بدنه اما بابقاء بدنه أو بابقاء نوعه وإصلاحهما جميعا . والمذموم من فعل النفس الأمارة بالسوء وهو استحبابها لما فيه لذتها البدنية — وهذه الشهوة إذا غلبت سميت هوى فانها تستتبع الفكرة وتستخدمها لتستغرق وقتها فى الامتثال لأمرها . والفكرة مترددة بين الشهوة والعقل . يخدمها العقل فوقها والشهوة تحتها . فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن وإذا

امالت إلى الشهوة تسفلت إلى أسفل السافلين وولدت القبائح .

بيان إمكان تغيير الخلق

لقد ظن بعض المائلين إلى البطالة أن الخلق كالخلق فلا يقبل التغيير والتفت إلى قوله عليه السلام فرغ الله من الخلق وظن أن المطمع فى تغيير الخلق طمع فى تغيير خلق الله عز وجل وذهل عن قوله عليه السلام (حسنوا أخلاقكم) وان ذلك لو لم يكن ممكنا لمـــا أمر به ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب فان الأفعال نتائج الاخلاق كما أن الهوىّ إلى أسفل نتيجة الثقل الطبيعى فلم يتوجه الملام إلى أحدهما دون الآخر بل كيف ينكر تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى التأنس والكلب من الأكل إلى التأدب والفرس من الجماح إلى السلاسة وكل ذلك تغيير خلق . والقول الشافى فيه أن ما خلق الله سبحانه قسمان قسم لا فعل لنا فيه كالسماء والكواكب بل أعضاء أبداننا وأجزائها وما هو حاصل بالفعل . والقسم الثانى ما خلق وجعلت فيه قوة لقبول كمال بعده إذا وجد شرط التربية . وتربيته قد تتعلق بالاختيار فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية وغير قابلة لان تصير تفاحا . وإنما تصير نخلا إذا تعلق بها اختيار الآدمى فى تربيتها — فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن فى هذا العالم عجزنا عنه ولكن لو أردنا قهرهما واسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أمرنا بهذا وصار ذلك شرط سعادتنا ونجاتنا . نعم الجبلات مختلفة فبعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافهما سببان (أحدهما) باعتبار التقدم فى الوجود فإن قوة الشهوة وقوة الغضب وقوة التفكر موجودة فى الإنسان . وأصعبها تغييراً وأعصاها على الإنسان

قوة الشهوة فانها أقدم القوى وجوداً وأشدها تشبثاً والتصاقا فإنها توجد معه فى أول الأمر حتى توجد فى الحيوان الذى هو جنسه . ثم توجد قوة الحمية والغضب بعده . وأما قوة الفكر فانها توجد آخراً والسبب أنه يتأكد الخلق بكثرة العمل بموجبه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً مرضياً . والناس فيه أربع مراتب (الأولى) هو الإنسان الغفل الذى لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح فيبقى خاليا عن الاعتقاد وخاليا أيضا عن تشمير شهواته (١) باتباع اللذات فهذا أقبل الاقسام للعلاج فلا يحتاج إلا إلى تعليم مرشد وإلى باعث فى نفسه يحمله على الاتباع فيحسن خلقه فى أقرب وقت (والثانية) أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له شر عمله يتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه فأمره أصعب من الاول إذ تضاعفت علته فعليه وظيفتان (أحدهما) قلع ما رسخ فيه من كثرة التعود للفساد (والآخر) صرف النفس إلى ضده . وعلى الجملة هو فى محل قبول الرياضة ان انتهض لها عن جد كامل (والثالثة) أن يعتقد الاخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل ثم تربى عليها — فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال (الرابعة) أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد وتربيته على العمل به يرى فضله فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ويتباهى به ويظن أن ذلك يرفع من قدره — وهذا أصعب المراتب وفى مثله قيل (من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل المسح ليبيض). (فالاول) من هؤلاء يقال له جاهل (والثانى) جاهل وضال (والثالث) جاهل وضال وفاسق (والرابع) جاهل وضال وفاسق وشرير .

---

(١) قوله تشمير شهواته أى تشديدها وتقويتها

بيان الطريق الجلى فى تغيير الأخلاق ومعالجة الهوى

اعلم أن المقصود من المجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة تكميل النفس وتزكيتها وتصفيتها لتهذيب أخلاقها . وبين النفس وبين هذه القوى نوع من العلاقة تضيق العبارة عن تعريفه على وجه يتشكل فى خزانة التخيل لأن هذه العلاقة ليست محسوسة بل معقولة وليس من غرضنا بيان تلك العلاقة ولكن كل واحد من النفس والبدن متأثر بسبب صاحبه فان النفس إن كملت وكانت زاكية حسنت أفعال البدن وكانت جميلة — وكذا البدن إن جملت آثاره حدث منها فى النفس هيئات حسنة وأخلاق مرضية . فاذاً الطريق إلى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة حتى إذا صار ذلك معتاداً بالتكرر مع تقارب الزمان حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضى تلك الأفعال وتتقاضاها بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه فيصير بنفسه جوادا — وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وغلب عليه التكبر فطريقه فى المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواظبة دائمة على التكرر مع تقارب الأوقات . والعجب أن الأمر بين النفس والبدن دور إذ بأفعال البدن تكلفا يحصل للنفس صفة ، فاذا حصلت الصفة فاضت على البدن فاقتضت وقوع الفعل الذى تعوده طبعا بعد أن كان يتعاطاه تكلفا . والأمر فيه كالأمر فى سائر الصناعات فان من أراد أن يصير له الحذق فى الكتابة صفة نفسية ثابتة . فطريقه أن يتعاطى ما يتعاطاه الكاتب الحاذق وهو حكاية الخط الحسن متكلفا متشبها . ثم لا يزال يواظب على تعاطى الخط الحسن حتى يصير له ذلك ملكة راسخة ويصير الحذق فيه صفة نفسانية

فيصدر منه بالآخرة بالطبع ما كان يتكلفه ابتداء بالتصنع فكأن الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسنا ولكن الأول متكلف والآخر بالطبع — وذلك بواسطة تأثر النفس — وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا بممارسة الفقه وحفظه وتكراره وهو فى الابتداء متكلف حتى ينعطف منه على نفسه وصف التفقه فيصير فقيه النفس بمعنى أنه حصل للنفس هيئة مستعدة نحو تخريج الفقه فيتيسر له ذلك طبعا مهما حاوله . وكذلك الأمر فى جميع صفات النفس وكما ان طالب رتبة الفقه لا يحرم هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بزيادة ليلة — فكذلك طالب كمال النفس لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرمها بنقصان يوم ولكن تعطله فى يوم واحد يدعو إلى مثله . ثم يتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل فيفوته فضيلة الفقه . فكذا صغائر المعاصى بعضها يدعو إلى بعض وكما أن تكرار ليلة لا يحس بأثره فى تفقه النفس فانه يظهر شيئا فشيئا مثل نمو البدن وارتفاع القامة — فكذلك الطاعة الواحدة قد لا يحس أثرها فى النفس وكمالها فى الحال ولكن ينبغى أن لا يستهان بها فان الجملة مؤثرة وإنما جمعت من الآحاد فلكل واحد تأثير . ثم ما من طاعة إلا ولها أثر ما وان خفى — وكذلك المعصية وكم من فقيه مسوف يستهين بتعطيل يوم وليلة . وهكذا على التوالى فيفوته كمال العلم فكذا من يستهين بصغار المعاصى ينتهى به الأمر إلى حرمان السعادة وكم من فقيه موفق لا يستهين بتعطيل يوم وليلة فهكذا على التوالى فيحرز كمال النفس والعلم فكذا من لا يستهين بصغار المعاصى ينتهى به الأمر إلى درجات السعادة إذ القليل يدعو إلى الكثير . ولذلك قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه الإيمان يبدو فى القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله وإن النفاق يبدو فى القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد ، فاذا استكمل العبد النفاق اسود القلب كله .

بيان مجامع الفضائل التى بتحصيلها تنال السعادة

إذا عرف أن السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها وان تكميلها
كتساب الفضائل كلها فلابد من أن يعرف الفضائل جملة وتفصيلا ، فأمة
ضائل بجملتها فتنحصر فى معنيين (أحــــدهما) جودة الذهن والتميز
والآخر) حسن الخلق أما جودة الذهن فليميز بين طريق السعادة والشقاوة
مل به وليعتقد الحق فى الأشياء على ما هى عليه عن براهين قاطعة مفيدة
قين لا عن تقليدات ضعيفة ولا عن تخييلات مقنعة واهية . وأما حسن
خلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها
يث يبغضها فيجتنبها كما يجتنب المستقذرات وان يتعود العادات الحسنة
يشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها كما قال عليه السلام (جعلت قرة عينى فى
صلاة) ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع استثقال وكراهة فذلك
قصان ولا ينال كمال السعادة به . نعم المواظبة عليه بالمجاهدة غاية الخير
لكن لا بالاضافة إلى فعله عن طوع ورغبة وإنما قيل الحق مر بالاضافة
لى من لم يتهذب . فبقى فيه صوارف عن الحق ـــ ولذلك قال تعالى (وانها
لكبيرة إلا على الخاشعين) ولذلك قال عليه السلام ان استطعت أن تعمل
ى الرضى لله فاعمل . إلا فى الصبر على ما تكره خير كثير . ثم لا يكفى فى
يل السعادة استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان بل ينبغى
ن يكون ذلك على الدوام فى جملة العمر . وكل ما كان العمر أطول كانت
الفضيلة أرسخ وأكمل ـــ ولذلك لما سئل عليه السلام عن السعادة . قال
طول العمر فى طاعة الله ـــ ولذلك كره الأنبياء والأوليـــاء الموت فان
الدنيا مزرعة للآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب
أكثر والنفس أزكى وأطهر وكمالها أتم وابتهاج صاحبها بجمالها عند التجرد
عن علائق البدن أشد وأوفر ـ وذلك إذا تنبه عن نومه الذى أغفله عن إدراك

حال نفسه من جمال يبتهج به أو خزى وخيال يفتضح به ـــ وذلك التنبه باطراح الشواغل . فالناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . فهذه مجامع الفضائل وغايتها أن تصدر منه الفضائل أبداً بغير فكر وروية وتعب ويطلع على الحق بغير تعب طويل حتى كأنه يصدر منه وهو فى غفلته كالصانع الحاذق فى الخياطة والكتابة . وغاية الرزالة أن ترشح منـــه الرزائل بغير تكلف ولا فكر ولا روية (واعلم) أن هذه الفضائل المحصورة فى فن نظرى وفى فن عملى يحصل كل واحد منها على وجهين (أحدهما) بتعلم بشرى وتكلف اختيارى يحتاج فيه إلى زمان وتدرب وممارسة . ويتقوى الفضيلة فيه شيئا فشيئا خفى التدريج كتدريج الشخص فى النمو وإن كان فى الناس من يكفيه أدنى ممارسة وذلك بحسب الزكاء والبلادة (والثانى) يحصل بجود إلهى نحو أن يولد الإنسان فيصير بغير معلم عالما كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا . وكذا سائر الأنبياء الذين حصل لهم من الاحاطة بحقائق الامور مالم يحصل لطلاب العلم بالتعلم . وقيل ان ذلك قد يحصل أيضاً بغير الأنبياء وهم الذين يعبر عنهم بالأولياء وهذا الآن رزق لا يمكنه اكتسابه بالجهد فمن حرم ذلك فليجتهد أن يكون من الفريق الثانى وليعلم نزول رتبته عن رتبة أولئك (فليس التكحل فى العينين كالكحل) ولاينبغى أن تستبعد أن يكون بالطبع فى مبدأ الفطرة من العلوم ما يحصل بالجهد والاكتساب كما يكون ذلك فى الأخلاق . فرب صبى صادق اللهجة سخى جرىء . وربما يخلق بخلافه ـــ وذلك يحصل بالتأديب والتربية . فاذا الفضيلة تارة تحصل بالطبع وطوراً بالاعتياد[1] ومرة بالتعلم . فمن تضافرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار

(١) لايخفى الفرق بين الاعتياد والتعلم على أذكيا. الطلاب حيث أن الاول قد يكون غير مصحوب بعلم كحال الصبي الذى يعوده أبواه على شىء بلا دراية منه بحقيقة ذلك الشىء إنتهى

ذا فضيلة طبعا واعتياداً وتعلما فهو فى غاية الفضيلة . ومن كان رزلا من هذه الجهات الثلاث فهو فى غاية الرزالة . وبينهما رتبة من اختلفت فيه هذه الجهات .

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

ينبغى أن تعلم أن علاج النفس بمحو الرزائل عنها وبكسب الفضائل مثاله علاج الأبدان بمحو العلل عنها وبكسب الصحة لها وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال — وإنما تعترى العلة المغيرة للاعتدال بعوارض الاغذية وغيرها. فكذا كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه . والمقصود أنه بالتعليم والاعتياد يكتسب الرزائل . وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل بالنشو والتربية بالغذاء — فكذلك النفس تخلق ناقصة وإنما تكمل بالتزكية . وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة فان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه فكذا النفس منك إن كانت زاكية طاهرة مهذبة الأخلاق فينبغى أن تسعى لحفظ صحتها وجلب مزيد قوة وصفاء إليها . وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى فى جلبه اليها وكما أن العلة المغيرة للاعتدال الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها إن كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس — فكذا الرزيلة الموجبة لنقصان النفس علاجها بضدها كما سبق من علاج الجهل بالتعلم والبخل بالتسخى تكلفا والكبر بالتواضع تكلفاً والشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما أن كل مبرد لا يكفى لعلة أوجبتها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص . ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من عيار يعرف به مقدار النافع منه . فان لم يحفظ عياره زاد الفساد — فكذلك النقيض الذى

يعالج به الأخلاق لابد له من عيار . وكما أن عيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة وان كانت الحرارة فما درجتها أهى ضعيفة أو قوية . فاذا عرف التفت معه الى أحوال البدن وأحوال الزمان والصناعة التى المريض بصددها وعالج بحسبها — فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطب نفوس المريدين والمسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص مالم يعرف أخلاقهم . فاذا عرف ماهو الغالب على المريد من الخلق السىء وعرف مقداره ولاحظ حاله وسنه وما يحتمله من المعالجة عين له الطريق ولذلك ترى الشيخ يشير على بعض المريدين أن يخرج إلى السوق للكدية . وذلك ان توسم فيه نوع رياسة وتكبر فيعالجه بما يراه ذلا وهو نقيض خلقه حتى ينكسر به تكبره ويشير على بعضهم بتعهد بيت الماء واعداد نبل الاستنجاء . وذلك إذا رأى نفسه مائلة إلى الرعونة فى النظافة المجاوزة حد الاعتدال وقد يشير عليه بالصوم ويأمره بالوصال إلا بمقدار يخرج به عن موجب النهى — وذلك إذا رآه شابا قوى الشهوة مولعا بشهوة البطن والفرج الى غير ذلك من طرق التهذيب . وعن بعضهم أنه كان يعالج قوة الغضب ويتكلف صفة الحلم فكان يعطى السفهاء الاجرة ليجهروه بالشتم فى المحافل فيتعود احتماله فصار بحيث يضرب به المثل فى الحلم . وكان آخر يدرج نفسه فى الشجاعة فيركب البحر فى الشتاء . وآخر كان يهيء المآكل الطيبة ويطعمها غيره بحضرته وهو يقتصر على خبز الشعير لكسر الشره . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول ليلة على رجل واحدة لا ينتقل عنها . وآخر عالج حب المال بأن باع كل ماله ورمى بثمنه فى البحر . فهذا طريق جلى فى تهذيب الأخلاق . والكلام فى تفصيله يطول . والغرض أن تنظر أيها المتشوق الى تزكية نفسك فى أخلاقك . فإن كانت مهذبة فاحفظها وإن كانت مائلة

الى حد الاعتدال على ما سيأتى تفصيله . فإن المقصود من جلب
ب الطرفين إذ الغرض تطهير النفس عن الصفات التى تلحقها
ن حتى لاتلتفت إليها بعد المفارقة عاشقة ومتأسفة على فوتها
شتغال والتألم بها عن السعادات اللائقة بجوهرها . ومهما أردنا
اء حارا ولا باردا طلبنا فيه الاعتـــدال وكان الفاتر لا حارا
فكذلك هذه الصفات . فان قلت فبماذا أعلم أن الحاصل لى هو
وهو الوسط المعتدل بين طرفى الافراط والتفريط . فطريقك
لافعال التى يوجبها ذلك الخلق الذى فيه مجاهدتك فإذا التذذت
) أن الخلق الموجب له راسخ فى نفسك فإن كان ذلك الفعل
) أن الخلق قبيح مثل أن تلتذ بامساك المال وجمعه . فوجيه
عود نفسك نقيضه والأخلاق الحسنة والسيئة قد فصلها الشرع
صنف فى آداب النبى عليه السلام وهى مشهورة وسنشير إلى
والاعتدال انك لو كنت تلتذ بالاسراف فى تفريق المال فتعلم
ا مذموم وهو الذى يعبر عنه بالتبذير . والمحمود المعتدل هو
ع بين التحرق والتبذير وهو أن يتيسر عليك بذل مايقتضى الشرع
عن طوع ورغبة ويتيسر عليك امساك ما يقتضى الشرع والعقل
طوع ورغبة وكذا فى سائر الصفات والواحد منها كاف فى المثال.
، أن معيار الاعمال مأخوذ من مقدار الصفات والأخلاق لم
أن الطريق فى هذا تختلف باختلاف الأشخاص وتختلف فى حق
باختلاف الأحوال . فمن رزق البصيرة تتبع العلة وعالجها
ولما كان أكثر الناس يعجزون عنه و عسر على الشرع تفصيل
لاشخاص فى جميع الاعصار اقتصر الشرع فى التفصيل فى القوانين
ى تمم جدواها من الطاعات وترك المعاصى المحذورة ثم رغب

عن المباحات التى تقصد للتلذذ بأمور جميلة كقوله (حب الدنيا رأس كل خطيئة) وأمثاله ثم عرف أهل البصيرة منه غاية المطلوب وطريقه وغاية المحذور وطريقه ووقفوا به على التفصيل وأرشدوا إليه من وفق لاتباعهم فكانوا نوابا عن الانبياء فى تفصيل ما أجملوه وشرح ما مهدوه . ولذلك قال عليه السلام (العلماء ورثة الانبياء) .

بيان أمهات الفضائل

الفضائل وإن كانت كثيرة فتجمعها أربعة تشمل شعبها وأنواعها وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة . فالحكمة فضيلة القوة العقلية . والشجاعة فضيلة القوة الغضبية . والعفة فضيلة القوة الشهوانية . والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب . فبها تتم جميع الأمور ولذلك قيل بالعدل[1] قامت السموات والأرض . فلنشرح آحاد هذه الامهات ثم لنشرح بيانها وما ينطـــوى من الأنواع تحتها . فأما الحكمة فنعنى بها ماعظم الله تعالى فى قوله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا) وما أراده رسول الله حيث قال (الحكمة ضالة المؤمن) وهى منسوبة إلى القوة العقلية وقد عرفت فيما سبق أن للنفس قوتين (احداهما) تلى جهة فوق وهى التى بها تتلقى حقائق العلوم الكلية الضرورية والنظرية من الملأ الأعلى وهى العلوم اليقينية الصادقة أزلا وأبدا لا تختلف باختلاف الاعصار والامم كالعلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وأصناف خلقه فى العالم بل من جملة العلم أن النفى والاثبات لا يصدقان على شىء واحد فى حال واحدة وكذلك العلوم الحقيقية . فهذه العلوم هى الحكمة الحقيقية (والقوة

---

(١) فان الانسان الذى هو عنوان مجموع العالم إلا كبر لا تكمل حقيقته فيصير حقيقة جمعية كاملة الا بالعدالة فتدبر .

الثانية) هي التي تلي جهة تحت أعني جهة البدن وتدبيره وسياسته وبها تدرك
النفس الخيرات في الأعمال وتسمى العقل العملي وبها يسوس قوى نفسه
ويسوس أهل بلده وأهل منزله . واسم الحكمة لها من وجه كالمجاز لأن
معلوماتها كالزئبق تتقلب ولا تثبت فمن معلوماتها ان بذل المال فضيلة . وقد
يصير رذيلة في بعض الأوقات وفي حق بعض الأشخاص — فلذلك كان
اسم الحكمة بالاول أحق وهذا الثاني كالكمال والتتمة للاول — وهذه هي
الحكمة الخلقية والأولى هي الحكمة العلمية والنظرية ونعني بالحكمة
الخلقية حالة وفضيلة للنفس العاقلة بها تسوس القوة الغضبية والشهوانية
وتقدر حركاتها بالقدر الواجب في الانقباض والإنبساط وهي العلم بصواب
الأفعال وهذه الفضيلة تكتنفها رذيلتان وهما الخب والبله فهما طرفا
إفراطها وتفريطها . أما الخب فهو طرف افراطها وهو حالة يكون بها
الإنسان ذا مكر وحيلة باطلاق الغضبية والشهوانية يتحركان إلى المطلوب
حركة زائدة على الواجب . وأما البله فهو طرف تفريطها ونقصانها عن
الاعتدال وهي حالة للنفس تقصر بالغضبية والشهوانية عن القدر الواجب
ومنشأه بطء الفهم وقلة الاحاطة بصواب الأفعال . وأما الشجاعة فهي
فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب
بالشرع في اقدامها واحجامها وهي وسط بين رذيلتيها المطيفتين بها وهما
التهور والجبن . فالتهور الطرف الزيادة عن الاعتدال وهي الحالة التي بها يقدم
الانسان على الأمور المحظورة التي يجب في العقل الاحجام عنها . وأما الجبن
فالطرف النقصان وهي حالة بها تنقص حركة الغضبية عن القدر الواجب
فتصرف عن الاقدام حيث يجب الاقدام . ومهما حصلت هذه الأخلاق
صدرت منها هذه الأفعال أي يصدر من خلق الشجاعة الاقدام حيث يجب
وكما يجب وهو الخلق الحسن المحمود واياه أريد بقوله (أشداء على الكفار

رحماء بينهم) فلا الشدة في كل مقام محمودة ولا الرحمة . بل المحمود ما يوافق
معيار العقل والشرع . فمن حصل له ذلك فليحفظه بالمواظبة على أفعاله . ومن
لم يحصل له فلينظر فان كان طبعه مائلا إلى النقصان الذي هو الجبن فليتعاطى
أفعال الشجعان متكلفا مواظبا عليه حتى يصير له الإعتياد طبعا وخلقا فيفيض
منه أفعال الشجعان بعد ذلك طبعا وإن كان مائلا إلى طرف الزيادة وهو
التهور فليشعر نفسه بعواقب الامور وليعظم أخطارها وليتكلف الاحجام
إلى الإعتدال أو ما يقرب منه فان الوقوف على حقيقة حد الاعتدال شديد
ولو تصور ذلك لارتحلت النفس عن البدن وليس معها علاقة منه فكانت
لا تتعذب أصلا بالتأسف على ما يفوتها منه . وكان لا يتكدر عليها ابتهاجها
بما يتجلى لها من جمال الحق وجلاله ولكن لما عسر ذلك قيل (وان منكم
إلا واردها) وقد رأى بعض المشايخ رسول الله في المنام فقال ما الذي
أردت بقولك (شيبتني سورة هود) فقال قوله (فاستقم كما أمرت) يعني
الاستمرار على الصراط المستقيم وطلب الوسط بين هذه الاطراف شديد
وهو أدق من الشعر وأحد من السيف كما وصف من حال الصراط في الدار
الآخرة ومن استقام على الصراط في الدنيا استقام على الصراط في الآخرة
مستقيما إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه . ولذلك
وجب في كل ركعة من الصلاة قراءة الفاتحة المشتملة على قوله اهدنا الصراط
المستقيم فانه أعقد الأمور وأعصاها على الطالب ولو كلف ذلك في خلق
واحد لطال العناء فيه . وقد كلفنا ذلك في جميع الأخلاق مع خروجها عن
الحصر كما سيأتي ولا خلاص عن هذه المحظورات الا بتوفيق الله ورحمته
ولذلك قال عليه السلام (الناس كلهم موتى إلا العالمون والعالمون كلهم موتى
إلا العاملون . والعاملون كلهم موتى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم)
فنسأل الله تعالى أن يمدنا بتوفيقه لنجاوز الأخطار في هذه الدار ولا ننخدع

بدواعي الاغترار وأما العفة فهي فضيلة القوة الشهوانية وهي انقيادها على تيسر وسهولة للقوة العقلية حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب اشارتها . ويكتنفها رذيلتان الشره والخمود . فالشره هو إفراط الشهوة إلى المبالغة في اللذات التي تستقبحها القوة العقلية وتنهى عنها . والخمود هو خمود الشهوة عن الإنبعاث إلى ما يقتضي العقل نيله وتحصيله وهما مذمومان كما أن العفة التي هي الوسط محمودة . وعلى الإنسان أن يراقب شهوته والغالب عليها الافراط لاسيما إلى مقتضى الفرج والبطن وإلى المال والرياسة وحب الثناء . والإفراط والتفريط في كل ذلك نقصان وإنما الكمال في الاعتدال . ومعيار الاعتدال العقل والشرع وذلك أن يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة والغضب مثلا بأن يعلم أن شهوة الطعام إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذي يسد خلل ما ينحل من أجزائه بالحرارة الغريزية حتى يبقى البدن حيا والحواس سليمة ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرك حقائق الأمور ويتشبه بالطبقة العليا بالاضافة اليه وهي رتبة الملائكة وبها كمالها وسعادتها . ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوى على العبادة دون التلذذ به فيقتصر ويقتصد لا محالة ولا يشتد اليه شرهه ويعلم أن شهوة الجماع خلقت فيه لتكون باعثة على الجماع الذي هو سبب بقاء النوع محفوظا ليطلب النكاح للولد والتحصن لا للعب والتمتع وان تمتع ولعب كان باعثه عليه التألف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة ودوام النكاح . ويقتصر من الأنكحة على القدر الذي لا يعجزه عن القيام بحقوقه . ومن عرف ذلك سهل عليه الاقتصار . وعند ذلك لا يقيس نفسه بصاحب الشرع عليه السلام إذ كان لا يشغله كثرة الأنكحة عن ذكر الله تعالى ولا يلزمه طلب الدنيا لأجل الأزواج . ومن ظن أن ما لا يضر صاحب الشرع لا يضره كان كمن ظن أن ما لا يغير البحر الخضم من النجاسات لا يغير كوزا مغترفا من البحر . وان ما لا يضر الشخص

القوى البنية السوى من الأطعمة اللذيذة لا يضر الصبي الرضيع السخيف البنية . وكم من أحمق يتكايس فيقيس نفسه بصاحب الشرع مقايسة الملائكة بالحدادين فيهلك من حيث لا يدري نعوذ بالله من عمش البصيرة فانه يكاد يكون أردى من العمى إذ الأعمى يعتقد عجزه فيتبلد فيهديه غيره . والأعمش ينفتح من بصيرته بقدر ما يستنكف به من الاتباع ثم لا يكمل نوره بحيث يستكمل مستمرا في سواء السبيل . ومن هذه حاله لا يبالي الله في أي واد هلك . ولقد رأيت جماعة من الحمق العوام يتكايسون في التصوف بآرائهم ويزعمون أن هذه الشهوات لم خلقت ان كان اتباعها مذموما ومهلكا ولم يعلموا أن تحت خلق الشهوتين أعني شهوة الفـــرج والبطن حكمتين عظيمتين (احداهما) ابقاء الشخص بالغذاء والنوع بالحرث فانهما ضروريتان في الوجود بحكم اجراء الله سنته بمشيئة الله الأزلية التي لا يجد لها تبديلا ولا تحويلا (والثانية) ترغيب الخلق في السعادات الأخروية فانهم ما لم يحسوا بهذه اللذات والآلام لم يرغبوا في الجنة ولم يحذروا النار ولو وعدوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لما أثر ذلك بمجرده في نفوسهم هذا حد العفة . وأما العدل فهو حالة للقوى الثلاث في انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب في الاستعلاء والانقياد فليس هو جزءاً من الفضائل بل هو عبارة عن جملة الفضائل فانه مهما كان بين الملك وجنده ورعيته ترتيب محمود بكون الملك بصيرا قاهرا وكون الجند ذوى قوة وطاعة وكون الرعية ضعفاء سلسى الانقياد قيل إن العدل قائم في البلد وان ينتظم العدل بأن يكون بعضهم بهذه الصفات دون كلهم — وكذلك العدل في مملكة البدن بين هذه الصفات . والعدل في أخلاق النفس يتبعه لا محالة العدل في المعاملة والسياسة ويكون كالمتفرع منه ومعنى العدل الترتيب المستحب . اما في الأخلاق واما في حقوق المعاملات واما في أجزاء ما به

قوام البلد . والعدل فى المعاملة وسط بين رذيلتى الغبن والتغابن وهو أن يأخذ ماله أخذه ويعطى ماله أن يعطى . والغبن أن يأخذ ما ليس له . والتغابن أن يعطى فى المعاملة ما ليس عليه حمد وأجر . والعدل فى السياسة أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس حتى يكون المدينة فى ائتلافها وتناسب أجزائها وتعاون أركانها على الغرض المطلوب من الاجتماع كالشخص الواحد فيوضع كل شىء موضعه وينقسم سكانها إلى مخدوم لا يخدم وإلى خادم ليس بمخدوم وإلى طبقة يخدمون من وجه ويخدمون من وجه آخر كما ذكرناه فى قوى النفس . ولا يكتنف العدل رذيلتان بل رذيلة الجور المقابلة له إذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط . وبمثل هذا الترتيب والعدل قامت السموات والأرض حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والأجزاء وإذ قد ذكرنا جملة هذه الأمهات فلنذكر تفصيل ما يندرج تحت كل فضيلة ورذيلة من أنواع الفضائل والرذائل مبتدئين فيه بالقوة العقلية ثم الغضبية ثم الشهوانية ليكون ذلك أشفى فى البيان .

بيان ما يندرج تحت فضيلة الحكمة ورذيلتيها من الخب والبله

أما الحكمة فيندرج تحت فضيلتها حسن التدبير وجودة الذهن ونقابة الرأى وصواب الظن . أما حسن التدبير فهو جودة الروية فى استنباط ما هو الأصلح والأفضل فى تحصيل الخيرات العظيمة والغايات الشريفة مما يتعلق بك أو تشير به على غيرك فى تدبير منزل أو مدينة أو مقاومة عدو ودفع شر . وبالجملة فى كل أمر متفاقم خطير فان كان الامر هيناً حقيراً سمى كيساً ولم يسم تدبيراً . وأما جودة الذهن فهو القدرة على صواب الحكم عند اشتباه الآراء وثوران النزاع فيها وأما نقابة الرأى فهو سرعة الوقوف على الأسباب الموصلة فى الأمور إلى العواقب المحمودة . وأما صواب

الظن فهو موافقة الحق لما تقتضيه المشاهدات من غير استعانة بتأمل الأدلة وأما رذيلة الخب فيندرج تحتها الدهاء والجربزة . فالدهاء هو جودة استنباط ما هو أبلغ فى إتمام مايظن صاحبه انه خير وليس بخير فى الحقيقة ولكن فيه ربح خطير . فان كان الربح خسيساً سمى جربزة . فالفرق بين الدهاء والجربزة يرجع إلى الحقارة والشرف . وأما رذيلة البله فتندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون . فأما الغمارة فهى قلة التجربة بالجملة فى الأمور العملية مع سلامة التخيل . وقد يكون الانسان غمرا فى شىء دون شىء بحسب التجربة . والغمر بالجملة هو الذى لم تحنكه التجارب (وأما الحمق) فهو فساد أول الروية فيما يؤدى إلى الغاية المطلوبة حتى ينهج غير السبيل الموصل . فان كان خلقة سمى حمقا طبيعياً ولا يقبل العلاج[١] وقد يحدث عند مرض فيزول بزوال المرض (وأما الجنون) فهو فساد التخيل فى انتقاء ما ينبغى أن يؤثر حتى يتجه إلى إيثار غير المؤثر . فالفاسد من الجنون غرضه . ومن الاحمق سلوكه إذ غرض الاحمق كغرض العاقل — ولذلك لا يعرف فى أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل الغرض والجنون هو فساد الغرض — ولذلك يعرف فى أول الأمر .

بيان ما يندرج تحت فضيلة الشجاعة

وهو الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنبل والشهامة والوقار . أما الكرم فهو وسط بين البذخ والبذالة وهو طيب النفس بالانفاق فى الأمور الجليلة القدر العظيمة النفع . وقد يسمى حرية . وأما النجدة فهو وسط بين الجسارة والانخذال وهو ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت مهما وجب ذلك من غير خوف . وأما كبر النفس

---

(١) لعل المراد عسر العلاج والا فالانسان له أصل الاستعداد لاى كمال

فهو وسط بين التكبر وصغر النفس وهو فضيلة يقدر بها الانسان أن يؤهل نفسه للأمور الجليلة مع استحقاره لها وقلة مبالاته بها ابتهاجا منه بقدر نفسه وجلالتها . وأثره أن يقل سروره بالاكرام الكبير من العلماء ولا يسر باكرام الاوغال ولا بالأمور الصغار ولا بما يجرى مجرى البخته والاتفاق من السعادات . وأما الاحتمال فهو وسط بين الجسارة والهلع وهو حبس النفس عن مسايرة المؤذيات وأما الحلم فهو وسط بين الاستشاطة والانفراك وهى حالة تكسب النفس الوقار . وأما الثبات فهو شدة النفس وبعدها من الخور . وأما الشهامة فهو الحرص على الأعمال توقعاً للجمال وأما النبل فهو سرور النفس بالافعال العظام . وأما الوقار فهو وسط بين الكبر والتواضع وهو أن يضع نفسه موضع استحقاقها لمعرفته بقدرها . وأما رزيلتا الشجاعة وهما التهور والجبن فيندرج تحتهما البذخ والبذالة والجسارة والنكول والتبجح وصغر النفس . والهلع والاستشاطة والانفراك والتكبر والتخاسس والعجب والمهانة . فما يميل منها إلى جانب الزيادة فهو تحت التهور . وما يميل إلى جانب النقصان فهو تحت الجبن فاما البذخ فهو الانفاق فيما لا يجب من الزينة وغيرها طلبا للصلف . وأما البذالة فهى الدناءة وترك الانفاق فيما يجب والافتخار بالأشياء الصغار . وأما الجسارة فالاستهانة بالموت حيث لا تجب الاستهانة . وأما النكول فهو الانقباض فيما لا يجب عنه الانقباض خوفا من الهلاك . وأما التبجح فهو تأهيـــل النفس للأمور الكبار من غير استحقاق . وأما صغر النفس فهو تأهيل النفس لما دون الاستحقاق . وأما الجسارة فهو قلة التأثر بأسباب الهلاك من غير أثر جميـــل تقتضيه . وأما الهلع فهو سوء احتمال الآلام والمؤذيات . وأما الاستشاطة فهو سرعة الغضب وحدته . وأما الانفراك فهو بطؤ الغضب وبلادته وأما التكبر فهو رفع النفس فوق قدرها . وأما

التخاسس حط النفس فى الكرامة والتوقير إلى مادون قدرها . فان كان على الوجه الواجب سمى تواضعاً محموداً . والمولد للكبر هو العجب وذلك جهل الانسان بمقدار نفسه وظنه أنها على رتبة عالية من غير أن يكون كذلك . وذم الناس للتكبر والبخل أشد من ذمهم للتخاسس والتبذير فانهما فى غاية القبح — وهذان وان كانا مذمومين فهما شبيهان بالسخاء والتواضع وربما يدق الفرق بينهما فيظن أنهما محمودان وهما رزيلتان بالحقيقة مائلتان عن الوسط — ولذلك قال عليه السلام (طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل فى نفسه من غير مسكنة) .

بيان ما يندرج تحت فضيلة العفة ورزيلتيها

أما فضائل العفة فهى الحياء والخجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحســـن الهيئة والقناعة والهدو والورع والطلاقة والمساعدة والتسخط والظرف . أما الحياء فهو وسط بين الوقاحة والخنوثة . وقيل فى حده أنه ألم يعرض للنفس عند الفزع من النقيصة . وقيل انه خوف الإنسان من تقصير يقع فيه عند من هو أفضل منه وقيل انه رقة الوجه عند اتيان القبائح وتحفظ النفس عن مذمومة يتوجه عليها الحق فيها . وبالجملة فانه يستعمل فى الانقباض عن القبيح ويستعمل فى الإنقباض عما يظنه المستحى قبحاً — وهذا الأخير يليق بالصبيان والنساء وهو مذموم من العقلاء . والاول جميل من كل أحد والمراد بقوله : (ان الله يستحى من ذى شيبة فى الاسلام أن يعذبه) . أنه يترك تعذيبه . وأما الخجل فهو فترة النفس[1] لفرط الحيـــاء

(١) قوله فترة النفس أى انكسارها وضعفها قال فى المختار الفترة الانكسار والضعف انتهى مصححه .

وإنما يحمد فى الصبيان والنساء دون الرجال . وإنما يستحى الإنسان ممن يكبر فى نفسه . فاما أن يستحى من الناس فنفسه أخس عنده من غيره ومن لا يستحى من الله فلعدم معرفته لجلاله ولذلك قال عليه السلام (استحيوا من الله حق الحياء) ولذلك قال تعالى (أو لم يعلم بأن الله يرى) فانه مهما أحس فى نفسه أن الله يراه فيستحى لا محالة ان كان متدينا معظما كما قال عليه السلام (لا إيمان لمن لاحياء له) لأن الحياء الإنسان هو أول أمارات العقل . والإيمان آخر مراتب العقل . وكيف ينال المرتبة الاخيرة من لم يجاوز الاولى . وأما المسامحة فهو التجافى عن بعض الاستحقاق باختيار وطيب نفس وهو وسط بين المناقشة والإهمال . وأما الصبر فهو مقاومة النفس للهوى واحتماؤها عن اللذات القبيحة . وأما السخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير وهو سهولة الإنفاق وتجنب اكتساب الشيء من غير وجهه . وأما حسن التقـــدير فهو الاعتدال فى النفقات احترازاً عن طرف التقتير والتبذير . وأما الدماثة فهو حسن هيئة النفس الشهوانية فى الاشتياق إلى المشتهيات وأما الانتظام فهو حال للنفس يدعوها إلى نظر ما يقدره من النفقات حتى يناسب بعضها بعضاً . وأما حسن الهيئة فمحبة الزينة الواجبة التى لا رعونة فيها . وأما القناعة فحسن تدبير المعاش من غير خب . وأما الهدو فسكون النفس فيما تناله من اللذات الجيلة . وأما الورع فوسط بين الرياء والهتكة وهو تزيين النفس بالأعمال الصالحة الفاضلة طلباً لكمال النفس وتقربا إلى الله دون الرياء والسمعة . وأما الطلاقة فهو المزاح بالادب من غير فحش واقتراء وهو وسط بين الافراط والتفريط فى الجد والهزل . وأما الظرف فهو وسط بين التقطيب الذى هو الافراط فى التحاشى وبين الهزل وهو أن يعرف الانسان طبقات الجلساء ويحفظ أوقات الانس ويعطى كلا ما هو أهله من المباسطة فى الوقت معه . ولما كان الانسان مفتقراً

الى استراحة ضرورية ترويحاً للقلب لم يكن بد من نوع من المشرة . والدعابة مستطابة غير مترقية الى الهزل لكن بمقدار مايفارق به الانسان حد التوحش وسيرة الخفاة غير مجاوز الى داب المساخر فى المضحكات . وقد نقل من دعابة رسول الله وأصحابه ما ينبه على جنسه ولسنا نطول به . وأما المسامحة فهو وسط بين الشكاسة والملق وهو ترك الخلاف والانكار على المعاشرين فى الامور الاعتيادية إيثاراً للتلذذ بالمخالطة . وأما التسخط فهو وسط بين الحسد والشماتة والاغتمام بالخيرات الواصلة الى من لم يستحقها والشرور التى تلحق من لا يستحقها . وأما الرذائل المندرجة تحت رذيلتى العفة فهى الشره وكلال الشهوة والوقاحة والتخنث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والكزازة والمجانة والعبث والتحاشى والشكاسة والملق والحسد والشماتة فاما الوقاحة فلجاج النفس فى تعاطى القبيح من غير احتراز من الذم . وأما التخنث فحال يعترى النفس من افراط الحياء يقبض النفس عن الانبساط قولا وفعلا . وأما التبذير فافناء المال فيما لا يجب وفى الوقت الذى لا يجب فيه وأكثر مما يجب . وأما التقتير فهو الامتناع من انفاق ما يجب وسببه البخل والشح واللؤم ولكل واحد من هذه الثلاثة رتبة . أما البخيل فهو الذى يفرط ويقصر فى الانفاق خوفا من أن تضطره الفاقة الى المسألة والتذلل للأعداء وكان سبب البخل هو الجبن عند البحث . وأما الشحيح فهو الذى يجمع الى ما ذكرناه أن يكره حسن حال غيره طمعا فى أن يضطره الى الحاجة اليه فينال به الجاه والرفعة ومنشأ هذا ضرب من الجهل . وأما اللئيم فهو الذى يجمع الى هذه الصفات احتمال العار فى الشىء الحقير وسببه نوع من الخبث وذلك مثل المتلصص والديوث . وأما الرياء فهو التشبه بذوى الاعمال الفاضلة طلباً للسمعة والمفاخرة وأما الهتكة فالاعراض عن تزيين النفس

بالاعمال الفاضلة والمجاهرة باضدادها . وأما الكزازة[١] فالافراط فى الجد
وأما المجانة فالافراط فى الهزل . وأما العبث فالافراط فى الاعجاب بلقاء
الجليس والأنيس . وأما التحاشى فافراط فى التبرم بالجليس وأما الشكاسة
فمخالفة المعاشرين فى شرائط الانس . وأما الملق فالتحبب إلى المعاشرين
مع التغافل عما يلحقه من عار الاستخفاف وأما الحسد فالاغتمام بالخير الواصل
إلى المستحق الذى يعرفه الحاسد . وأما الشماتة فالفرح بالشر الواصل إلى
غير المستحق ممن يعرفه الشـــامت . وأما العدالة فجامعة لجميع الفضائل
والجور المقابل لها فجامع لجميع الرذائل . وما من خلق من هذه الأخلاق
إلا وقد ورد فى فضائله أخبار باعثة عليه فى رذائله زواجر عنه ولم نر
تطويل الكتاب بها . فليطلب ذلك من آداب النبى عليه السلام وغيره من
الكتب . وانما الغرض بيان ان الانسان بسبب هذه القوى الثلاث بصدد
هذه الأخلاق كلها ولكل واحد طرفان وواسطة وهو مأمور بالتوسط
والاستقامة بين طرفى الافراط والتفريط فى جملة ذلك حتى إذا حصل ذلك
كله كمالا يقربه إلى الله تقريبا بالرتبة لا بالمكان بحسب قرب الملائكة المقربين
من الله عز وجل . فلله البهاء الاعظم والكمال الأتم . وكل موجود فمشتاق
إلى الكمال الممكن له وهو غايته المطلوبة منه فان ناله التحق بأفق العالم
الذى فوقه وان حرم عنه انحط إلى الحضيض الذى تحته . فالانسان بين
أن ينال الكمال فيلتحق فى القرب من الله بأفق الملائكة وذلك سعادته أو
يقبل على ما هو مشترك بينه وبين البهائم من رذائل الشهوة والغضب
فينحط إلى درجة البهائم ويهلك هلاكا مؤبدا وهو شقاوته . ومثاله الفرس
الجواد الذى كماله فى شدة عدوه فان عجز عن ذلك حط إلى رتبة مادونه

(١) قال فى المختار الكزازة الانقباض واليبس والمراد هنا ماذكره المصنف اهـ

فاتخذ حمولة واكولة . ومراتب الكمال للانسان بحسب هذه الأخلاق
وبحسب العلوم غير منحصرة — ولذلك تتفاوت درجات الخلق فى الآخرة
كما تتفاوت فى الدنيا فى الخلق والأخلاق والثروة واليسار وسائر الأحوال .

بيان البواعث على تحرى الخيرات والصوارف عنها

أما الخيرات الدنيوية فالبواعث عليها ثلاثة أنواع الترغيب والترهيب
بما يجرى ويخشى فى الحال والمآل . والثانى رجاء المحمدة وخوف المذمة ممن
يعتد بحمده وذمه . والثالث طلب الفضيلة وكمال النفس لانه كمال وفضيلة
لا لغاية أخرى وراءها فالاول مقتضى الشهوة وهى رتبة العوام . والثانى
من مقتضى الحياء ومبادى العقل القاصر وهو من أفعال السلاطين وأكابر
الدنيا ودهاتهم المعدودين من جملة العقلاء بالإضافة إلى العوام والثالث
مقتضى كمال العقل وهو فعل الأولياء والحكماء ومحققى العقلاء ولتفاوت
هذه الرتب قيل (خير ما أعطى الإنسان عقل يردعه فإن لم يكن فحياء يمنعه
فإن لم يكن فخوف يزجره فإن لم يكن فمال يستره فإن لم يكن فصاعقة تحرقه
فيستريح منه العباد والبلاد) وهذا التفاوت يعهد لكل شخص من صباه إلى
كبره إذ هو فى ابتداء صباه لا يمكن زجره وحثه بالحمد والذم بل بمطعوم
حاضر أو ضرب ناجز يحس به . فإذا صار مميزا مقاربا للبلوغ أمكن زجره
وحثه بالمحمدة والمذمة . فطريق زجره مذمة المزجور عنه وتقبيح حال
متعاطيه وطريق ترغيبه فى تعلم الأدب وغيره بكثرة الثناء على آتيه وكثرة
الذم لمجتنبيه فيؤثر ذلك تأثيرا ظاهرا . وأكثر الخلق لا يجاوزون هاتين
المرتبتين إلى الرتبة الثالثة فيكون إقدامهم وإحجامهم صادرة عن هذه البواعث
والصوارف . وأما الرتبة الثالثة فيعز وجودها والخيرات الاخروية أيضا
هذا شأنها — وبهذا الطريق تتفاوت الناس فيها إذ لا فرق بين الاخروية

والدنيوية إلا بتأخر وتقدم وإلا فالخير مطلوب كل عاقل عاجلا وآجلا .
والبواعث على الطلب لا تعدو هذه الأقسام فكأن من أطاع الله وترك
معصيته فرتبته ثلاث (الأولى) من يرغب فى ثوابه الموصوف له فى الجنة
أو يخاف من عقابه الموعود له فى النار . وهذه الرتبة للعامة وهم الاكثرون
(والثانية) رجاء حمد الله ومخافة ذمه أعنى حمدا وذماً فى الحال من جهة
الشرع — وهذه منزلة الصالحين وهى أقل من الأولى بكثير (والثالثة)
وهى العزيز الفذ رتبة من لا يبتغى إلا التقرب إلى الله تعالى وطلب مرضاته
وابتغاء وجهه والالتحاق بزمرة المقربين إليه زلفى من ملائكته وهو درجة
الصديقين والنبيين ولذلك قال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون
ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) . وقيل لرابعة العدوية ألا تسألين الله
الجنة فقالت الجار ثم الدار . وقال بعضهم من عبد الله لعوض فهو لئيم .
ولما كان العقل الضعيف لا يقف على كنه هذا المعنى . وأكثر العقول ضعيفة
خلق الله الجنة والنار ووعد الخلق بهما زجرا وحثا وأطنب فى وصفهما ولم
يتعرض لهذه المعانى إلا بالمرامز مثل قوله تعالى (يريدون وجهه) (واعددت
لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)
وأما الصوارف فقصور أو تقصير . أما القصور فالمرض المانع والشغل
الضرورى فى طلب قوت النفس والعيال وما يجرى مجراه — وهذا معذور
غير مذموم إلا أنه عن ذروة الكمال محروم ولا دواء له إلا الفزع إلى الله
تعالى لاماطة هذه الصوارف بجوده . وأما التقصير فقسمان جهل وشهوة
غالبة . أما الجهل فهو أن لا يعرف الخيرات الأخروية وشرفها وحقارة
متاع الدنيا بالإضافة إليها وهو على رتبتين (احداهما) أن يكون عن غفلة
وعدم مصادفة مرشد منبه — وهذا علاجه سهل ولأجله وجب أن يكون
فى كل قطر جماعة من العلماء والوعاظ ينبهون الخلق عن غفلاتهم ويرغبون عن

الدنيا فى الآخرة لا على الوجه الذى ألفه أكثر وعاظ الزمن . فهذا مما يجرئ
الخلق على المعاصى أو يحقر الدين عندهم (والثانية) أن يكون لاعتقادهم أن
السعادة هى اللذات الدنيوية والرياسة الحاضرة وأن أمر الآخرة لا أصل له .
أو لأن الإيمان وحده كاف وهو مبذول لكل مؤمن كيف كان عمله أو يظن
الاتكال على عفو الله ينجيه وان الله كريم رحيم لا نقصان له من معصية
العصاة فلا بد أن يرحمهم . وهذه أنواع من الحماقات فترت خلائق كثيرة
عن الطاعات وجرأتهم على المعاصى . فاما من ظن أن الآخرة لا أصل لها
فهو الكفر المحض والضلال الصرف . ومهما كان هذا الاعتقاد مصمما
بعدت الانسانية عن صاحبه والتحق بالهلكى على كل حال . وأما من ظن
أن مجرد الإيمان يكفيه فهو جهل بحقيقة الإيمان وغفلة عن قوله (من قال
لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة) وان معنى الاخلاص أن يكون معتقده
وفعله موافقا لقوله حتى لا يكون منافقا . وأقل درجاته ألا يتخذ إلهه هواه .
فمن اتبع هواه فهو عبده وصار إلهه هواه — وذلك يبطل قوله لا إله إلا الله
وينافى إخلاصه . ومن ظن أن سعادة الآخرة تنال بمجرد قوله لا إله إلا الله
دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن أن الطبيخ يحلو بقوله طرحت السكر فيه
دون أن يطرحه أو الولد يخلق بقوله وطأت الجارية دون أن يطأها .
والزرع ينبت بقوله بذرت البذر دون أن يبذره — وكما أن هذه المقاصد
فى الدنيا لا تنال إلا بأسبابها — فكذلك أمر الآخرة فان أمر الآخرة
والدنيا واحد . وإنما خص باسم الآخرة لتأخره . والخروج لفضاء العالم
آخرة بالاضافة إلى الكون فى بطن الأم . والبلوغ إلى عالم التمييز آخرة
بالاضافة إلى ما قبله . والبلوغ إلى رتبة العقلاء آخرة بالاضافة إلى ما قبلها .
وإنما هذه تردد فى أطوار الخلقة . والموت طور آخر من الاطوار ونوع
آخر من الترقى وضرب آخر من الولادة والانتقال من عالم إلى عالم كما قال

عليه السلام (القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة)
أى ليس فى الموت إلا تبديل منزل وكما أن من جلس متكلا على رحمة الله ونعمته
متعطشا جائعا لم يسلك الطريق فى شرب الماء وتناول الخبز هلك . ومن
اتكل عليه فى طلب المال ولم يتجر لم يحصل له المال وكان شقيا — فكذا
من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا .
ولذلك نبه الله تعالى عليه فقال (وان ليس للانسان إلا ما سعى) ومهما
عرف ان البهاء الاكمل لله وان السعادة القصوى فى القرب منه وان القرب
منه ليس بالمكان وإنما هو باكتساب الكمال على حسب الامكان وان كمال
النفس بالعلم والعمل والاطلاع على حقائق الأمور مع حسن
الأخلاق . فمن لم يكمل كيف يقرب من الله تعالى . ومن أراد أن تقرب
رتبته عند الملك بنوع من العلم لو تعطل فى بيته متكلا على كرم الملك ملازما
صفة النقصان غير مجتهد طول الليل فى طلب العلم معولا على فضل الله فى أن
يبيت ليله ويصبح أفضل أهل زمانه فان فضل الله عز وجل أوسع له وقدرته
متسعة لاضعافه قيل له[1] هذا فعل مشحون بالباطل والحماقة مزين الظاهر
بكلام يظن أنه محمود فكذا من ظن أن الآخرة تنال بالبطالة والعطالة
فهذه حاله .

بيان أنواع الخيرات والسعادات

نعم الله سبحانه وان كانت لا تحصى مفصلة فجملتها منحصرة فى خمسة
أنواع (الاول) السعادة الاخروية التى هى بقاء لا فناء له وسرور لا غم
فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر معه يخالطه ولن يتوصل إليه إلا بالله
ولا يكمل إلا (بالنوع الثانى) وهو الفضائل النفسية التى حصرنا جملتها من

(١) قوله قيل له الخ خبر قوله ومن أراد أن يتقرب

قبل فى أربعة أمور العقل وكماله العلم . والعفة وكمالها الورع والشجاعة
وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الإنصاف وهى على التحقيق أصول الدين .
وإنما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث وهى الفضائل البدنية المنحصرة
فى أربعة أمور فى الصحة والقوة والجمال وطول العمر ويتممها النوع الرابع
وهى الفضائل المطيفة بالإنسان المنحصرة فى أربعة أمور وهى المال والأهل
والعز وكرم العشيرة . ولا يتم الانتفاع بشىء من ذلك إلا بالنوع الخامس
وهى الفضائل التوفيقية وهى أربعة هداية الله ورشده وتسديده وتأييده .
فهذه السعادات بعد السعادة الاخروية ستة عشر ضربا . ولا مدخل للاجتهاد
فى اكتساب شىء منها إلا الفضائل النفسية على الوجه الذى سبق . فقد عرفت أن
هذه الخيرات خمسة وهى الأخروية والنفسية والبدنية والخارجة والتوفيقية .
والبعض منها يحتاج إلى البعض اما حاجة ضرورية كالفضائل النفسية التى
لا مطمع فى الوصول الى نعيم الآخرة الا بها وصحة البدن الذى لا وصول
الى تحصيل الفضائل النفسية إلا به . واما حاجة نافعة كحاجة هذه الفضائل
الخارجة فان المال والأهل والعشيرة ان عدمت تطرق الخلل الى أسباب هذه
الفضائل . فان قلت فما وجه الحاجة الى الفضائل الخارجة من المال والأهل
والعز وكرم العشيرة .

(فاعلم) ان هذه الامور جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة
للمقصود . اما المال فالفقير فى طلب الكمال كساع الى الهيجاء بغير سلاح
وكباز متصيد بلا جناح — ولذلك قال عليه السلام (نعم المال الصالح للرجل الصالح)
وقال نعم العون على تقوى الله المال كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات
فى طلب القوت واللباس والمسكن وضرورات المعيشة فلا يتفرغ لاقتناء العلم الذى
هو أشرف الفضائل . ثم يحرم عن فضيلة الحج والصدقة والزكاة وافاضة الخيرات .
وأما الأهل والولد الصالح فالحاجة اليهما ظاهرة . أما المرأة الصالحة فحرث

الرجل وتحصين دينه قال عليه السلام (نعم العون على الدين المرأة الصالحة) وقال في الولد (اذا مات الرجل انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) ومهما كثر أهل الرجل وأقاربه وساعدوه كانوا له بمنزلة الآذان والاعين والايدي فيتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية ما يطول فيه شغله لو انفرد . وكلما تخففت الاشغال الضرورية في الدنيا تفرغ القلب للعبادة والعلم فهو معين على الدين . وأما العز فبه يدفع الإنسان عن نفسه الضيم ولا يستغنى عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يقصده فيشوش عليه وقته ويشغل قلبه — ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . وقيل الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم . وما لا حارس له فضائع . ولذلك قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) وبالجملة دفع الأذى لابد منه للفراغ للعبادة . ولا يتم ذلك الا بنوع من العز — وكما أن الموصل الى الخير خير فدفع الصارف عن الخير خير أيضا . وأما كرم العشيرة وشرف الآباء فقد يستهان به ويقال المرء بنفسه والناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرء ما يحسنه . ولعمري اذا قوبل شرف الاصل دون شرف النفس بشرف النفس دون شرف الأصل استحقر شرف الاصل أما اذا انضم اليه لم تنكر فضيلته (فأين السرى اذا سرى اسراهما[1]) وقد شرط النسب في الامامة . وقيل الأئمة من قريش وكيف لا والاخلاق تتبع الامزجة وتسرى من الاصول الى الفروع ولذلك قال عليه السلام (تخيروا لنطفكم وقال إياكم وخضراء الدمن) وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء . فهذا أيضا من السعادات ولا نعني به الانتساب الى بني الدنيا ورؤسها وأمرائها ولكن الانتساب إلى النفوس الزكية الطاهرة المزينة بالعلم والعبادة والعقل .

(١) اى أحدهما سيرا وكأنه مثل يريد به ابن سرى رجل اى سيره ليلا من أسرى آخر أشد منه وأكثر في السير

فإن قلت فما غناء هذه الفضائل الجسمية . فنقول اما الحاجة الى الصحة والقوة وطول العمر فلا شك فيه وانما يستحقر أمر الجمال فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحرى الفضائل . ولعمرى أن الجمال لقليل الغناء ولكنه من السعادات والخيرات على الجملة أما في الدنيا فلا يخفى وجهه وأما في الآخرة فمن وجهين (أحدهما) ان القبح مذموم والطباع منه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب فكأنه جناح مبلغ مثال المال ، والمعين على قضاء حاجات الدنيا معين على الآخرة اذ الوصول الى الآخرة بهذه الاسباب الدنيوية (والثاني) أن الجمال في الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن . والمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان . ولذلك عول أصحاب الفراسة على هيئات البدن واستدلوا بها على الاخلاق الباطنة . والعين والوجه كالمرآة الباطل — ولذلك يظهر فيهما أثر الغضب والشر . وقيل طلاقة الوجه عنوان ما في النفس وما في الارض قبيح إلا ووجهه أقبح منه . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فاسقط اسمه وقال (الروح ان أشرقت على الظاهر ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن) وقد قال عليه السلام (اطلبوا الحاجة عند حسان الوجوه) وقال (اذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم) وقال الفقهاء اذا تساوت درجات المصلين فاحسنهم وجها أولاهم بالإمامة . وقال تعالى ممتنا به (وزاده بسطة في العلم والجسم) ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وانما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليها . فان قلت فما معنى الفضائل التوفيقية التي هي الهداية والرشد والتسديد والتأييد (فاعلم) أن التوفيق هو الذي لا يستغنى عنه الإنسان في كل حال ومعناه موافقة

لإرادة الإنسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره . وهو صالح للاستعمال فى الخير
والشر ولكن صار متعارفا فى الخير والسعادة . ووجه الحاجة الى التوفيق
بين — ولذلك قيل :

اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وأما الهداية فلا سبيل لأحد الى طلب الفضائل الا بها فهى مبدأ الخيرات
كما قال تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقال تعالى (ولولا فضل
الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء)
وقال عليه السلام (ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله) أى بهدايته :
قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا والهداية ثلاث منازل (الاولى)
تعريف طريق الخير والشر المشار إليه بقوله عز وجل (وهديناه النجدين)
وقد أنعم الله به على كافة عباده بعضهم بالعقل وبعضهم على ألسنة الرسل .
ولذلك قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) (والثانية)
ما يمد به العبد حالا بعد حال بحسب ترقيه فى العلوم وزيادته فى صالح
الاعمال واياه عنى بقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)
(والثالثة) هو النور الذى يشرق فى عالم الولاية والنبوة فيهتدى به الى مالا
يهتدى اليه ببضاعة العقل الذى به يحصل التكليف وامكان التعلم . واياه عنى
بقوله تعالى (قل ان هدى الله هو الهدى) فاضافه الى نفسه وسماه الهدى
المطلق . وهو المسمى حياة فى قوله (أو من كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له
نوراً يمشى به فى الناس) وبقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو
على نور من ربه) وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية التى تعين الإنسان على
توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده . ويكون
ذلك من الباطن كما قال تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به
عالمين) وأما التسديد فهو ان يقوم ارادته وحركاته نحو الغرض المطلوب

ليهجم عليه فى أسرع وقت . فالرشد تنبيه بالتعريف . والتسديد اعانة ونصرة
بالتحريك . وأما التأييد فهو تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش
من خارج وهو المراد بقوله تعالى (إذ أيدتك بروح القدس) . ويقرب منه
العصمة وهو فيض الهى يتقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى
يصير كمانع من باطنه غير محسوس . واياه عنى بقوله (ولقد همت به وهم
بها لولا أن رأى برهان ربه) وان تستتب هذه الامور الا بما يمدالله به عبده
من الفهم الثاقب الصافى والسمع المصغى الواعى والقلب البصير المراعى والمعلم
الناصح والمال الزائد على مقتضى المهمات لقلة القاصر لاما يشغل عن الدين
لكثرته والعشيرة والعز الذى يصون عن سفه السفهاء ويرفع ظلم الأعداء .
فبهذه الاسباب تكمل السعادات .

بيان غاية السعادات ومراتبها

اعلم أن السعادة الحقيقية هى الاخروية وما عداها سميت سعادة
إما مجازاً أو غلطاً كالسعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة . وإما صدقا
ولكن الاسم على الاخروية أصدق . وذلك كل ما يوصل إلى السعادة
الاخروية ويعين عليه . فان الموصل إلى الخير والسعادة قد يسمى خيراً
وسعادة . والاسباب النافعة المعينة تشرحها تقسيمات أربعة (الاول منها)
ما هو نافع فى كل حال وهى الفضائل النفسية . ومنها ما ينفع فى حال دون
حال ونفعها أكثر كالمال القليل ومنها ما ضرره أكثر فى حق أكثر الخلق —
وذلك بعض أنواع العلوم والصناعات . ولما كثر الالتباس فى هذا وجب
على العاقل الاستظهار بمعرفة حقائق هذه الامور حتى لا يؤثر الضار على
النافع بل النافع على الرفيع والرفيع على النفيس الاهم فيطول عليه الطريق
فكم من ناظر يحسب الشحم فيمن شحمه ورم . وكم من طالب حبلا ليتمنطق

به فيأخذ حية فيظنها حبلا فتلدغه . والعلم الحقيقي هو الذى يكشف عن هذه الامور (التقسيم الثانى) ان الخيرات بوجه آخر تنقسم إلى مؤثرة لذاتها وإلى مؤثرة لغيرها وإلى مؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها . فينبغي أن يعرف مراتبها ليعطى كل رتبه حقها . فالمؤثرة لذاتها السعادة الاخروية فليس وراء تلك الغاية غاية أخرى . والمؤثرة لغيرها من المال كالدراهم والدنانير . فلولا ان الحاجات تنقضى بها لكانت كالحصباء وسائر الجواهر الخسيسة . والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم . فان الإنسان وان استغنى عن المشى الذى يراد سلامة الرجل له فيريد أيضاً سلامة الرجل من حيث هى سلامة (والتقسيم الثالث) ان الخيرات تنقسم من وجه آخر إلى نافع وجميل ولذيذ . . والشرور ثلاثة ضار وقبيح ومؤلم . فكل واحد ضربان (أحدهما) مطلق وهو الذى يجمع الأوصاف الثلاثة فى الخير كالحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة . وفى الشر كالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم (والثانى) مقيد وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض . فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع الزائدة والسلعة الخارجة . ورب نافع قبيح كالحمق فانه راحة حيث قيل استراح من لا عقل له أى لا يغتم للعواقب فيستريح فى الحال . ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال فى البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال ونافع فى نجاة النفس . والنافع قسمان قسم ضرورى كالفضائل النفسية والاتصال إلى سعادة الآخرة وقسم قد يقوم غيره مقامه فلا يكون ضروريا كالسكنجبين فى تسكين الصفرا (التقسيم الرابع) ان اللذات بحسب القوى الثلاث والمشتهيات الثلاثة ثلاث اذ اللذة هى عبارة عن ادراك المشتهى . والشهوة عبارة عن انبعاث النفس لنيل ما تتشوقه لذة عقلية [1] وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات . أما

(١) قوله لذة عقلية بدل من قوله ثلاث

العقليات كلذة العلم والحكمة وهى أقلها وجوداً وأشرفها . أما قلتها فلأن الحكمة لا يستلذها إلا الحكيم . وقصور الرضيع عن إدراك لذة العسل والطيور السمان والحلاوات الطيبة لا يدل على انها ليست لذيذة . واستطابته اللبن لا تدل على أنه أطيب الاشياء . والناس كلهم إلا النادر مقيدون فى صبا الجهل بالعنة فى رتبة العلم . فلذلك يستلذون الجهل .

ومن يك ذا فم مر مريض　　يجد مرا به الماء الزلالا

وأما أشرفيتها فلانها لازمة لا تزول ودائمة لا تحول وباقية لذاتها . وثمرها فى الدار الآخرة إلى غير نهاية . والقادر على الشريف الباقى إذا رضى بالخسيس الفانى كان مصابا فى عقله محروما بشقاوته وادباره . وأقل أمر فيه أن الفضائل النفسية لا سيما العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال . فان العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص به . والعلم نافع فى كل حال ومطلقاً وأبدا . والمال تارة يجذب إلى الرذيلة وتارة إلى الفضيلة . ولذلك ذم فى القرآن فى مواضع وان سمى خيراً فى مواضع (الثانية) هى اللذة المشتركة بين الانسان وبين سائر الحيوانات كلذة الأكل والمشرب والمنكح وهى أكثرها وجوداً (الثالثة) التى يشاركه فيها الانسان بعض الحيوانات وهى لذة الرياسة والغلبة . وهى أشد التصاقا بالعقلاء . ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة . وكيف تكون لذة الجماع والأكل لذة مطلقة وهى من وجه إزالة ألم . ولذلك قال الحسن (الانسان صريع جوع وقتيل شبع) وجميع لذات الدنيا سبع مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومسكن ومشموم ومسموع ومبصر . وهى بجملتها خسيسة كما روى عن على كرم الله وجهه إذ قال لعمار بن ياسر وقد رآه يتنفس كالحزين . ياعمار ان كان تنفسك على الآخرة فقد ربحت تجارتك وان كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك . فانى وجدت لذاتها المأكولات

والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمسكونات والمشمومات
والمسموعات والمبصرات . فأما المأكولات فأفضلها العسل وهو صنعة
ذباب . والمشروبات أفضلها الماء وهو أهون موجود وأعز مفتقود
وأما المنكوحات فبـــال فى مبال . وحسبك أن المرأة تزين أحسن
شىء منها ويراد أقبح شىء منها . وأما الملبوسات فأفضلها الديباج وهو نسج
دودة . والمشمومات فأفضلها المسك وهو دم فارة والمسموعات فريح مابة
فى الهواء والمبصرات لخيالات صائرة إلى الفناء — هذا كلامه : ومن آفاتها
ان كل واحدة منها يتبرم بها بعد استيفائها فى لحظة . فليعتبر حالة الفراغ
عن الجماع والاكل بما قبله . ولينظر كيف ينقلب المطلوب مهروبا عنه فى
الحال . فأين يوازى هذا ما تدوم لذته ولا تفنى أبد الآباد راحته . وهو
الابتهاج بكمال النفس بالفضائل النفسية خصوصاً الاستيلاء على الكل
بالعلم والعقل .

بيان ما يحمد ويذم من أفعال شهوة البطن والفرج والغضب

أما شهوة البطن فداعية إلى الغذاء . والمطعم ضربان ضرورى وغير
ضرورى . أما الضرورى فهو الذى لا يستغنى عنه فى قوام البدن كالطعام
الذى يتغذى به والماء الذى يرتوى به . وهو ينقسم إلى محمود ومكروه
ومذموم ومحظور . أما المحمود فان يقتصر على تناول مالا يمكنه الاشتغال
والتقوى على العلم والعمل إلا به . ولو اقتصر عنه لتحللت قواه واختل بدنه
فهذا المقدار إذا تناوله من حيث يجب كما يجب فهو معذور بل مشكور
ومأجور . إذ البدن مركب النفس لتقطع به منازلها إلى الله تعالى . وكما
أن الجهاد عبادة فامداد فرس المجاهدة بما يقويه على السير بالمجاهد أيضاً
عبادة . ولذلك قال عليه السلام (عند أكل الصالحين تنزل الرحمة) وذلك

إذا تناوله تناول من اضطر إلى شىء يود لو استغنى عنه . وإدخال الطعام
البطن واخراجه قريب . ولذلك قيل من كان همته ما يدخل فى بطنه كانت
قيمته ما يخرج منها . وليعلم الآكل أنه فى تناول فضلات الاشجار والنبات
كالخنزير فى تناول عذرة الانسان وفضلاته . وكالجعل فى تناول فضلة
الحيوان ولوكان للأشجار ألسنة لناطقت متناول فضلاتها بالتشنيع بهذا
المتناول لفضلة الحيوان . وأما المكروه فهو الاسراف والامعان من
الحلال والزيادة على قدر الحاجة . قال عليه السلام (ما من وعاء أبغض إلى
الله تعالى من بطن ملىء من حلال) وهو أيضا مضر من جهة الطب فانه
أصل كل داء . قال عليه السلام (البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء
وعودوا كل جسد ما اعتاد) فقال محققوا الاطباء لم يدع عليه السلام شيئاً
من الطب إلا وأدرجه تحت هذه الكلمات الثلاث . ولا ينبغى أن يستهين
طالب السعادة بهذه الزيادة وان سميناها مكروها لا محظوراً فانه مكروه
سريع السياقة إلى المحظورات بل إلى أكثر المحظورات . فان مثار الشرور
قوة الشهوات ومقوى الشهوات هى الأغذية . فامتلاء البطن مقوى للشهوة
وتقوية الشهوة داعية للهوى . والهوى أعظم جند للشيطان الذى إذا تسلط
سباه عن ربه وصرفه عن بابه . وامداد جنود الأعداء بالمقويات يكاد
ينزل منزلة عين العداوة . فلهذا يكاد تكون الكراهية فيه حظراً . ولذلك
قيل لبعضهم ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهد . فقال لأنه سريع
المرح فاحش الاشر فاخاف أن يجمح بى فيورطنى . ولان أحمله على الشدائد
أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش ، فان قلت فما المقدار المحمود (فاعلم)
أنه نبه عليه السلام على التقدير بخبرين (أحدهما) قوله (حسب ابن آدم
لقيمات يقمن صلبه فان كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس)
فاما اللقيمات فهى دون العشرة ويقرب منه قوله عليه السلام (المؤمن

يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء) والأحب الأكل
فى سبع البطن . فان غلب النهم ففى الثلث . وأظن أن الحد ثلث فى حق
الأكثر وان كان ذلك قد يختلف باختلاف الأشخاص . وعلى الجملة
فلا بد أن يكون دون الشبع حتى يخف البدن للعبادة والتهجد بالليل
وتضعف القوى عن الانبعاث إلى الشهوات . وأما المحظور فهو التناول مما
حرم الله عز وجل من مال الغير أو المحرمات . وأفحشها شرب المسكر
فانه أعظم آلات الشيطان فى إزالة العقل الذى هو من حزب الله
وأوليائه واثارة الشهوة والقوى السبعية التى هى أحزاب الشيطان
وأوليائه . فهذا حكم المطاعم على الإجمال . ولا يطمعن أحد فى سلوك طريق
السعادة قبل أن يراعى أمر المطعم فى مقداره ووجه حله فان المعدة منبع
القوى . فكأنه الباب والمفتاح إلى الخير والشر جميعا . ولذا عظم فى الشرع
أمر الصوم لانه على الخصوص يتوجه إلى قهر أعداء الله تعالى كما روى (أن
الصوم لى وأنا الذى أجزى به) إلى غير ذلك مما ورد فيه . وأما شهوة
الفرج فأفعالها تنقسم إلى محمود ومكروه ومحظور . أما المحمود فهو المقدار
الذى لا بد منه لحفظ النوع فان النكاح ضرورى لبقاء نوع الانسان باتصال
نسله كما أن الغذاء ضرورى لبقاء شخصه إلى حين أجله . والشهوة خلقت
باعثة على إبقاء النسل بطريق الوطء كما خلق الجوع باعثا على ابقاء الشخص
بالاكل . ولذلك قال (تناكحوا تناسلوا تكثروا فانى مباه بكم الامم)
فمن كان قصده فى النكاح أمرين (أحدهما) النسل لكثرة المباهاة وأن
يلحقه بعده ولد صالح يدعو له (والثانى) أن يدفع عن نفسه فضلة المنى التى
إذا اجتمعت كانت كالمرة . والدم إذا اجتمع عظمت نكايته فى البدن باثارة
المرض وفى الدين بالدعوة الى الفجور . فالنكاح على هذا الوجه محمود وسنة
وداخل تحت قوله (من أحب فطرتى فليستن بسنتى) ومن نكح فقد

حصن نصف دينه ولا بأس بغرض ثالث وهو أن يكون فى بيته من يدبر
أمر منزله ليتفرغ هو للعلم والعبادة فيصير النكاح على هذا الوجه من جملة
العبادات فإن الاعمال بالنيات . وامارة هذا أن لا يطلب من المرأة الا
الجمال للتحصن وحسن الخلق لتدبير المنزل . والديانة للصيانة والنسب الدينى
فقط فانه امارة الديانة وحسن الخلق فان العرق نزاع ولذلك قال عليه السلام
(عليك بذات الدين تربت يداك وإياكم وخضراء الدمن) وقال (تخيروا
لنطفكم) وليطلب صحة البدن وان لا يكون عقيما لأجل الولد فانه المقصود .
ولذلك كره العزل واتيان المرأة من ورائها فانه اهمال للحراثة ونساؤكم
حرث لكم . ولا بأس بطلب الابكار لتستحكم الالفة وقد ندب الشرع اليها
وأما المكروه فان يقصد التمتع وقضاء الشهوة فقط . ثم يمعن فيه ويواظب
عليه وربما يتناول ما يزيد فى شهوته وذلك مضر شرعا ولا كراهية فيه فى
نفسه فانه مباح ولكنه انصراف عن الله الى اتباع الهوى وتشبه بالثيران
والحمر . واثارة الشهوة بالمطعومات القوية والاسباب الباعثة تضاهى اثارة
سباع ضارية وبهائم عادية ثم الانتهاض بعدها للخلاص منها . وأما المحظور
فعلى وجهين (أحدهما) أن يقضى الشهوة فى محل الحرث ولكن بغير عقد
شرعى ولا على الوجه المأمور وهو الزنا . وقد قرن ذلك بالشرك حيث قال
الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة (والثانى) تعاطيه فى غير محل الحرث
وهو أفحش من الزنا لان الزانى لم يضيع الماء بل وضعه فى محل الحرث على
غير الوجه المأمور . وهذا قد ضيع وكان ممن قال الله تعالى (ويهلك الحرث
والنسل) ولذلك سميت اللواطة الاسراف فقال تعالى (انكم لتأتون الرجال
شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) فهذا مراتب الناس فى شهوة
الفرج . وقد ينتهى بعض الضلال إلى العشق وهو عين الحماقة وغاية الجهل
بما وضع الجماع له ومجاوزة لحـــد البهائم فى تملك النفس وضبطها لها لأن

المتعشق لم يقنع بإرادة شهوة الجماع وهى أقبح الشهوات وأجدرها بأن يستحى منها حتى اعتقد أن لا تنقضى الا فى محل واحد . والبهيمة تقضى الشهوة أنى اتفق فتكتفى به . وهذا لا يكتفى الا من معشوقته حتى ازداد به ذلا الى ذل وعبودية إلى عبودية . واستسخر العقل لخدمة الشهوة . وقد خلق ليكون آمراً مطاعا لا ليكون خادماً للشهوة محتالا لاجلها وهو مرض نفس فارغة لا همة لها . وإنما يجب الاحتراز من أوائلها وهو معاودة النظر والفكر والا فبعد الاستحكام يعسر دفعها وكذلك عشق الجاه والمال والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فان هذه الامور تستولى على طائفة ينقضى عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها . ومثال رد الشهوة فى أول انبعاثها صرف عنان الدابة عن توجهها إلى باب دار تدخله فما أهون منعها وصرف عنانها . ومثال علاجها بعد استحكامها أن تترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب . ثم تأخذ بذنبها جارا لها الى وراء وما أعظم التفاوت بين الامرين فليكن الاحتياط فى بدايات الامور . فأما أواخرها فلا تقبل الاصلاح فى الأكثر إلا بجهد شديد يوازى نزع الروح . وأما أفعال الغضب فتنقسم إلى محمود ومكروه ومحظور أما المحمود ففى موضعين (أحدهما) المسمى غيرة وهو أن يقصد حريم الرجل ويتعرض لمحارمه . فالغضب له ولدفعه محمود وقلة التأثر به خنوثة وركاكة — ولذلك قال عليه السلام (ان سعداً لغيور وان الله أغير منه) وقد وضع الله الغيرة فى الرجال لحفظ الانساب فان النفوس لو تسامحت بالتزاحم على النساء لاختلطت الانساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها . (والثانى) الغضب عند مشاهدة المنكرات والفواحش غيرة على الدين وطلبا للانتقام ولذلك مدحوا بكونهم أشداء على الكفار رحماء بينهم — ولذلك قال عليه السلام (خير أمتى أحداؤها) فالمراد به الحدة لحمية الدين ولذلك

قال تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) ومع هذا فالسلطان إذا غضب عند جناية جان فينبغى أن يحبسه ولا يبادر إلى عقوبته حتى يجدد النظر فيه فان الغضب غول العقل فربما يحمله على مجاوزة حد الواجب فى الإنتقام وأما المكروه فغضبه عند فوات حظوظه المباحة نيلها كغضبه على خادمه وعبده عند كسر آنيته أو توانيه فى خدمته بحكم تغافل يمكن الاحتراز عنه . فهذا لا ينتهى إلى حد المذموم ولكن العفو والتجاوز أولى وأحب ولذلك قيل لواحد حكيم لا تصفح عن عبدك وهو يقصر فى خدمتك فيفسد باحتمالك فقال لأن يفسد عبدى فى صلاح نفسى خير من أن تفسد نفسى فى صلاح عبدى فان احتمال ذلك اصلاح للنفس والانتقام اصلاح للعبد وأما المذموم فهو الاستشاطة الصادرة عن الفخر والتكبر والمباهاة والمنافسة والحقد والحسد وعن أمور واهية تتعلق بالحظوظ البدنية من غير أن يكون فى الانتقام مصلحة فى المستقبل دينا ودنيا وهو الغالب على أكثر الخلق وهو انقياد للخلق الذى يضاد الحلم والتحلم فان الحلم عبارة عن امساك النفس عن هيجان الغضب والتحلم عن امساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج والكمال فى الحلم ولكن التحلم صبر على المكروه وفيه أيضا خير كثير فهذه مراتب أفعال الغضب . والناس فى الغضب يختلفون فبعضهم كالحلفاء سريع التوقد سريع الخمود وبعضهم كالقطا بطىء التوقد بطىء الخمود وبعضهم بطىء التوقد سريع الخمود وهو الأحمد مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة . وأسباب الغضب إما من جهة المزاج فالحرارة واليبوسة . يدل عليهما تعريف الغضب فان الغضب معناه غليان دم القلب فان كان على من فوقك فى القدرة على الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى القلب وكان حزنا ولأجله يصفر الوجه . وان كان على من دونك تولد منه ثوران دم القلب لانقباضه فيكون منه الغضب الحقيقى وطلب الانتقام . وان كان

على نظيرك فى القدرة على الانتقام تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط ويختلف به لون الوجه فيحمر ويصفر ويضطرب . وبالجملة قوة الغضب محلها القلب . ومعناه حركة الدم وغليانه . وأما ما وراء المزاج فالاعتياد فان من يعاشر جماعة يباهون بالغضب والطباع السبعية انطبع ذلك فيه . وان من خالط أهل الهدو والوقار أثرت العادة أيضا فيه . وأما سببه المخرج له من القوة إلى الفعل فى الحال فهو العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والضيم وطلب ما فيه التنافس والتحاسد وشهوة الانتقام وكل ذلك مذموم . وحق من اعتراه الغضب أن يتفكر فيما قاله بعض الحكماء لبعض السلاطين وقد سأله حيلة فى دفع الغضب . فقال ينبغى أن تذكر أنه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط وان تخدم لا أن تخدم فقط . وأن تحتمل لا أن تحتمل فقط وان تعلم أن الله يراك دائما . فاذا فعلت ذلك لم تغضب .

(واعلم) أن الغضب له فروع كما سبق ومن جملتها الشجاعة والتهور والمنافسة والغبطة والحسد على ما سبق ولكن نزيدها شرحا . أما الشجاعة تخلق بين التهور والجبن فان اعتبر اضافتها إلى النفس فهى صرامة القلب فى الاهوال وربط الجأش عند المخاوف وان اعتبر بالفعل فالاقدام على موضع الفرصة . وتولدها من الغضب وحسن الأمل وبها يصابر الانسان الشدائد بل بها يصبر عن المعاصى فان الغضب إذا سلط على الشهوة زجرها . ولما كان الدين شطره رغبة فى الخير وشطره تركا للشر قال عليه السلام (الصبر نصف الإيمان) ولما كان بعض الشرور فى شهوة الفرج والبطن وبعضها فى غيرهما قال الصوم نصف الصبر والصبر صبران صبر جسمى وهو تحمل المشاق بالبدن اما فعلا كتعاطى الأعمال الشاقة واما انفعالا كاحتمال الضرب الشديد والمرض العظيم . والمحمود التام هو الضرب الثانى وهو الصبر النفسى . فان كان عن تناول المشتهيات سمى عفة . وان كان على احتمال مكروه اختلفت

أسماؤه بحسب اختلاف المكروه . فان كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ويضاده الجزع والهلع وان كان فى احتمال غنى سمى ضبط النفس ويضاده البطر . وان كان فى حرب سمى شجاعة ويضاده الجبن . وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر وان كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وان كان فى اخفاء كلام سمى كتم السر . وان كان على فضول العيش سمى زهداً وقناعة ويضاده الحرص والشره . ولذلك قال تعالى (والصابرون فى البأساء) أى المصيبة و(الضراء) أى الفقر (وحين البأس) أى المحاربة (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وأما الغبطة والمنافسة والحسد التى هى من جملة الفروع أيضا فالغبطة محمودة والحسد مذموم . قال عليه السلام (المؤمن يغبط والمنافق يحسد) والمنافسة محمودة قال تعالى (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) والغبطة تمنى الانسان أن ينال كل ما ناله أمثاله من غير أن يغتم لنيل غيره فاذا انضم اليه الجد والتشمير فى الوصول إلى مثله أو خير منه فهو منافسة والحسد هو تمنى زوال النعمة عن مستحقها . وربما كان مع سعى فى إزالتها . والخبيث الحسد من يكون ساعيا فى الازالة من غير أن يطلبها لنفسه . والحسد غاية البخل اذ البخيل يبخل بمال نفسه . والحسود يبخل بمال الله على غيره . وقيل الحسد والحرص هما ركنا الذنوب ولهما ضرب[1] المثل بآدم وابليس إذ حسد ابليس آدم فصار لعينا . وحرص آدم على ما نهى عنه فأخرج من الجنة . فهما شجران يثمران الهموم والغموم والخسران . فمن قطع عروقهما نجا . وبالجملة فالحسد عين الحماقة لأن من لا يغتم بخير يصل إلى أهل المغرب مع أنه لا يناله بوجه فلم يغتم بخير يصل إلى عشيرته وشركائه وجيرانه وأهل بلده . وربما يناله منه حظا .

(١) فى هذا التعبير سر غامض تعرفه ارباب العقول الحرة والافكار العالية

وقوله عليه السلام (لا حسد إلا فى اثنين رجل أتاه الله مالا فجعله فى حق ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضى بها) إنما أراد به الغبطة فان الحسد قد يطلق لارادتها — فهذا هو القول فى ضبط أفعال هذه الصفات . فان قلت فمن ضبط أفعال هذه القوى حتى حدث فى نفسه من أفعاله أخلاق راسخة يتيسر بها هذه الأفعال فهل يكون عفيفا (فاعلم) أن العفة لا تتم بهذا القدر مالم ينضم اليه عفة اليد واللسان والسمع والبصر وحدها فى اللسان الكف عن السخرية والغيبة والنميمة والكذب والهمز والتنابز بالالقاب . وفى السمع ترك الاصغاء إلى قبائح اللسان من الغيبة وغيرها والى استماع الاصوات المحرمة وكذلك فى جميع الجوارح والقوى . وعماد عفة الجوارح كلها ألا يطلقها فى شىء مما يختص بها إلا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه . ثم لا تتم بذلك مالم يكن قصده فى الاقدام والاحجام تحرى فضيلة وطلب التقرب إلى الله عز وجل ونيل مرضاته . فأما ان كان قصده بعفته انتظارا لمـــا هو أكثر أو لانه لا يوافق مزاجه أو لخمود شهوته أو لاستشعار خوف فى عاقبته كسقوط حشمته أو لانه ممنوع من تناوله فكل ذلك ليس بعفة وإنما كل ذلك تجارة وترك حظ لحظ يماثله . وكل ذلك غير كاف فى تحصيل العفة فليعلم ذلك ولنخض بعد ذلك فى تعريف التعلم والتعليم وتهذيب القوة العقلية .

بيان شرف العقل والعلم والتعليم

قد عرفت فيما سبق أن العلم والعمل هما وسيلتا السعادة وان العمل لا يتصور الا بعلم بكيفية العمل وان العلم الذى ليس بعملى كالعلم بالله وصفاته وملائكته مقصود فقد استفدت منه أن العلم أصل الاصول فلابد أن نرشدك الآن إلى طريق التعلم والتعليم ولننبه أولا على شرف هذه الأمور وندل عليه

فنقول . أما التعليم فهو أشرف الاعمال (والصناعات ثلاثة أقسام) اما أصول لاقوام للعالم دونها وهى أربعة الزراعة والحياكة والبناية والسياسة [1] وأما مهيئة لكل واحدة منها وخادمة لها كالحدادة للزراعة . والحلاجة والغزل الحياكة واما متممة لكل واحدة من ذلك ومزينة لها كالطحانة والخبز للزراعة . والقصارة والخياطة للحياكة . وذلك بالإضافة إلى قوام العالم الارض مثل أجزاء الشخص بالإضافة اليه فانها ثلاثة أضرب . اما أصول كالقلب والكبد والدماغ . واما مرشحة لتلك الاصول وخادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين واما مكملة ومزينة لها كالهدب والحاجب . وأشرف أصول الصناعات السياسات اذ لا قوام للعالم إلا بها وهى أربعة اضرب (الاول) سياسة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة فى ظاهرهم وباطنهم (والثانى) الخلفاء والولاة والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً لكن على ظاهرهم لا على باطنهم (والثالث) العلماء والحكماء وحكمهم على باطن الخواص فقط (والرابع) الوعاظ والفقهاء وحكمهم على باطن العامة فقط فاشرف هذه السياسات الاربع بعد النبوة افادة العلم وتهذيب نفوس الناس . وبرهان ذلك أن شرف الصناعة إنما يكون باعتبار النسبة إلى القوة المبرزة المظهرة لها كفضل معرفة الحكمة على معرفة اللغات فإن الاولى متعلقة بالقوة العقلية التى هى أشرف القوى . والاخرى متعلقة بالقوة الحسية وهى السمع واما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة واما بحسب شرف الموضوع المعمول فيه كفضل الصياغة على الدباغة وليس يخفى أن العلوم العقلية تدرك بالعقل الذى هو أشرف القوى وبه يتوصل إلى جنة المأوى وهو أبلغ نفع وأعمه وموضوعه الذى يعمل فيه نفوس البشر وهى أفضل موضوع بل أشرف موجود فى هذا العالم . فإفادة العلم من وجه صناعة ومن وجه عبادة

[1] (١) الزراعة للقوت والحياكة للباس والبناية للمسكن والسياسة للامن

الله تعالى ومن وجه خلافة الله هو أجل خلافة فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته فهو كالخازن لأنفس خزائنه . ثم هو مأذون له فى الانفاق على كل محتاج اليه فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه وخلقه فى تقربهم إلى الله زلفى وسياقتهم الى جنة المأوى . وأما شرف العلم والعقل فمدرك بضرورة العقل والشرع والحس . أما الشرع فقد قال عليه السلام (أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب) وهذا العقل الذى يدرك به الانسان الأشياء تجرى من العقل الأول الذى خلق الله عز وجل مجرى النور من الشمس فانه هذه العقول عقول بالاضافة الى الأشخاص وذلك[1] مطلق من غير إضافة . وأما دلالة العقل على شرف العقل فهو ان مالا ينال سعادة الدنيا والآخرة إلا به فكيف لا يكون أشرف الأشياء وبالعقل صار الانسان خليفة الله وبه تقربه اليه وبه تم دينه[2] ولذلك قال عليه السلام (لا دين لمن لا عقل له) وقال (لا يعجبكم إسلام امرىء حتى تعرفوا عقله) ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه وناهيك به شرفا أن قد شبه الله سبحانه العقل بالنور فقال (الله نور السموات والأرض) أى منورهما[3] وأكثر ما يطلق النور والظلمات فى القرآن على العلم والجهل مثل قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) وإنما كل ذلك بالعقل — ولذلك

(١) فان العقل الاول نور صرف فياض على الكل فهو روح الكل وقد يسمى عند العرفاء بقلب العالم الاكبر انتهى

(٢) قال تعالى اليوم اكملت لكم دينكم أى ببعثة الرسل وشرعته تم دين الله تعالى

(٣) اذ به يتنور وينكشف أسرار ملكوت السموات والارض ومعنى كون الله منورا انه خالق لذلك النور الوضاح

قال عليه السلام لعلى رضى الله عنه (إذا تقرب الناس لخالقهم بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك تتنعم بالدرجات والزلفى عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة) وسنذكر وجه التقرب بالعقل وأما الحس بمجرده فكاف فى إدراك شرف العقل والعلم حتى ان أكبر الحيوانات شخصا وأفواها بدنا إذا رأى الانسان احتشمه بعض الاحتشام واستشعر الخوف منه لاحساسه بأنه مستول عليه بحيلته . وأقرب الناس إلى البهائم اجلاف العرب والترك . ورعاة البهائم منهم ولو وقع فيما بينهم راع أوفر منهم عقلا وأكثر منهم دراية بصناعتهم لوقروه طبعا ولذلك ترى الاتراك بالطبع يبالغون فى توقير شيوخهم لان التجربة ميزتهم عنهم بمزيد علم ولذلك قال عليه السلام مطلقا (الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته) وإنما وقار النبى فى أمته بعلمه وعقله لا بقوة شخصه وجمال بدنه وكثرة ماله وقوة شوكته ولذلك قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله عليه السلام فلما وقع طرفهم عليه هابوه وتراءى لهم نور الله فى وجهه معربا عن تميزه ملقيا الرعب فى صدور معانديه . وقد سمى الله عز وجل العلم روحا فقال (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) وسماه حياة فقال تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه) وقال عليه السلام (ماخلق الله خلقا أكرم من العقل) ولو جلبت الاخبار الواردة فى الحث على طلب العلم لطال المقال وأى تشريف يزيد على قوله (ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) .

بيان وجوب التعلم لاظهار شرف العقل

اعلم أن شرف العقل من حيث كونه مظنة العلم والحكمة وآلة له . ولكن نفس الانسان معدن للعلم والحكمة ومنبع لها وهى مركوزة فيها بالقوة فى أول الفطرة لا بالفعل كالنار فى الحجر والماء فى الأرض والنخل

في النواة . ولابد من سعى في ابرازه بالفعل كما لا بد من سعى في حفر الآبار لخروج الماء . ولكن كما أن من الماء ما يجرى من غير فعل بشرى ومنه ماهو كامن محتاج في استنباطه إلى حفر وتعب . ومنه ما يحتاج فيه إلى تعب قليل كذلك العلم في النفوس البشرية منه ما يخرج إلى الفعل من القوة بغير تعلم بشرى كحال الانبياء عليهم السلام فان علومهم تظهر من جهة الملأ الاعلى من غير واسطة بشرى . ومنه ما يطول الجهد فيه كأحوال العامة من الناس لاسيما ذوو البلادة الذين كبر سنهم في الغفلة والجهل ولم يتعلموا زمن الصبا . ومنه ما يكفى فيه السعى القليل كحال الأذكياء من الصبيان ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى) فالمراد باقرار نفوسهم المعنى الذى أشرنا اليه من كونها موجودة بالقوة دون إقرار الألسنة فانها لم تحصل من كلهم عند الظهور بل من بعضهم — وكذلك قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) معناه لئن أعتبرت أحوالهم شهدت نفوسهم وبواطنهم بذلك (فطرة الله التى فطر الناس عليها) فكل آدمى فطر على الإيمان وما جاء الأنبياء إلا بتوحيد ولذلك قال قولوا (لا إله إلا الله) فانه لن يصادف إلا من هو مصدق بالاله . وإنما غالط في عينه أو صفته . ثم لما كان الايمان بالله مركوزا في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى من أعرض فنسى وهم الكفار . وإلى من اجال خاطره فتذكر وكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها — ولذلك قال تعالى (لعلهم يتذكرون) (وليذكر أولو الألباب) (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به) (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) والتذكر هو أكثر ما يعبر به وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد . وكان التذكر ضربان (أحدهما) أن يتذكر صورة كانت مكتسبة في قلبه بالعقل ثم غابت عنه

(والآخر) أن يكون تذكره لصورة مضمنة بالفطرة في الانسان . ولذلك قال المحققون التعلم ليس يجلب للانسان شيئا من خارج بل يكشف الغطاء عما حصل في النفوس بالفطرة كحال مظهر الماء من الأرض ومظهر الصور في المرآة بالجلاء — وهذه حقائق ظاهرة للناظرين بعين العقل ثقيلة على من جمد به قصوره على أول رتبة صبيان المكتب في اعتلاق طبعهم بسوابق الخيالات من ظواهر الالفاظ من غير تحقيق لها .

بيان أنواع العقل

اعلم أن العقل ينقسم إلى غريزى وإلى مكتسب فالغريزى هو القوة المستعدة لقبول العلم . ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة . والمكتسب المستفاد هو الذى يحصل من العلوم إما من حيث لا يدرى كفيضان العلوم الضرورية عليه بعد التميز من غير تعلم . وإما من حيث يعلم مدركه وهو التعلم ولانقسام العقل إلى قسمين قال على رضى الله تعالى عنه .

رأيت العقل عقلين   فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع   إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس   وضوء العين ممنوع

(والاول) هو المراد بقوله ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل (والثانى) هو المراد بقوله عليه السلام لعلى (اذا تقرب الناس بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك) (والاول) يجرى مجرى البصر للجسم (والثانى) يجرى مجرى نور الشمس ولا منفعة في النور عند عمى البصر ولا يجدى البصر عند عدم النور فكذلك بصر الباطن وهو العقل وهو أشرف من البصر الظاهر إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر من عمى الفرس ولمشابهة بصره الباطن الظاهر قال تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) وقال (وكذلك نرى

إبراهيم ملكوت السموات والأرض) وسمى ضده عمى قال تعالى (فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وبالجملة من لم يكن بصيرة عقله نافذة فلا تعلق به من الدين إلا قشورة بل خيالاته وأمثلته دون لبابه وحقيقته فلا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية فان العقلية كالادوية للصحةوالشرعية كالغذاء والنقل جاء من العقل وليس لك أن تعكس . والنفس المريضة المحرومة من الدواء تتضرر [1] بالأغذية ولا تنتفع ولذلك قال تعالى (فى قلوبهم مرض) لماكانوا لا ينتفعون بالقرآن . والمقلدالاعمى إذا تأمل أمور مواد الشرع يتراءى له أمور متناقضة وهى كذلك بالاضافة إلى ما فهمه . ثم قد تجبن نفسه عن التأمل فيه لضعف عقله وخورطبعه فيتكلف الغفلة عنه خيفة أن ينكسر تقليده . وقد يتأمله فيدرك تناقضه فيتحير ويبطل يقينه ولو نظر بعين البصيرة لبطل التناقض ورأى كل شيء فى موضعه . ومثاله مثال الاعمى الذى دخل داراً فعثر بالكوز والطشت وأثاث الدار فقال لم وضعتم هذا على الطريق لم لا تردونها إلى محلها . فقيل له ان كلا فى موضعه ولكن الخلل فى البصر . فهذا بيان نسبة العلم المستفاد من العقل .

(واعلم) أن المكتسب من العلوم بواسطة العقل ينقسم إلى المعارف الدنيوية والأخروية . وطريقاها متنافيان فمن صرف عنايته إلى أحدهما قصرت بصيرته فى الآخر على الاكثر — ولذلك ضرب على رضى الله عنه ثلاثة أمثلة . فقال ان مثل الدنيا والآخرة ككفتى ميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين إذا ارضيت احداهما أسخطت الاخرى — ولذلك ترى الاكياس فى أمور الدنيا جهالا فى أمور الآخرة وبالعكس . ولذلك قال عليه السلام

(١) قال تعالى يضل به كثيراً ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين (أى الخارجين عن الفطرة الاصلية والسلامة القلبية)

الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . وقال لمن نسب بعض الصالحين إلى البله (أكثر أهل الجنة البله) يعنى فى أمور الدنيا — ولذلك قال الحسن البصرى ادركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين . ومهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين فلا يبعدنك عن قبوله أنه لو كان حقيقياً لادركه الا كياس من أرباب الدنيا ودقائق الصناعات الهندسية وغيرها إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب — فكذلك أمر الدنيا والآخرة — ولذلك قال تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) الآيتين وقوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ولا يكاد يجمع بينهما الا من رشحه الله لتدبير الخلق فى معاشهم ومعادهم وهم الانبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من قوة تتسع لجميع الأمور ولا تضيق فاما النفوس الضعيفة إذا شغلت بأمر انصرفت عن غيره ولن تقدر على الاستكمال منهما جميعاً .

بيان وظائف المتعلم والمعلم فى العلوم المسعدة

أما المتعلم فوظائفه كثيرة وتجمع تفاصيلها عشر جمل . (الوظيفة الاولى) أن يقدم طهارة النفس عن رديء الاخلاق فكما لا تصح عبادة الجوارح فى الصلاة إلا بطهارة الجوارح والعلم عبادة النفس وفى لسان الشرع عبادة القلب [1] فلا يصح إلا بطهارة القلب من خبائث الاخلاق وأنجاس الصفات قال عليه السلام (بنى الدين على النظافة) وهو كذلك باطنا كما أنه كذلك ظاهراً وقال تعالى (انما المشركون نجس) فنبه به على أن

(١) لما كان العالم نوعين اعلى واسفل — امرى وخلق وفى إمان بعض العرفاء تدوينى وتكوينى وكان التكوين طبق التدوين لانه ظله خص الشرع غالبا اسم القلب بالحقيقة الانسية العليا والنفس بالخليقة الانسانية التكوينية فتدبر

الطهارة والنجاسة غير مقصورتين على الظاهر — ولذلك قال عليه السلام (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب) والقلب منزل الملائكة ومحل نظرهم ومصب أثرهم . والصفات الردية كلاب مانعة . ومهما اعتقد فى بيت من طين وحيوان سمى كلباً وهو كسائر الحيوانات شكلا فبأن يعتقد فى بيت الدين وصفات لا تساوى سائر الصفات المحمودة أولى . وبيت الدين هو القلب وعليه تغلب الكلاب مرة والملائكة أخرى فان قلت فكم طالب ردىء الأخلاق حصل العلوم فما أبعدك عن فهم العلم الحقيقى الدينى الجالب للسعادة فما يحصله صاحب الأخلاق الردية حـــديث ينظمه بلسانه مرة وبقلبه أخرى وكلام يردده . ولو ظهر نور العلم على قلبه لحسنت أخلاقه فان أقل درجات العلم أن يعرف أن المعاصى سموم مهلكة مبطلة للحياة الأبدية فان منشأها الصفات الردية . وهل رأيت من عرف السم فتناوله . ولهذا قال عليه السلام (من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً) ولهذا قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله أى العلم امتنع وأبى أن يحصل وما حصل كان حديثا ولم يكن علما تحقيقيا . فان قلت انى أرى جماعة من فضلاء الفقهاء قد تبحروا فيها مع سوء أخلاقهم . فيقال لك إذا عرفت مراتب العلوم ونسبتها إلى سلوك سبيل السعادة عرفت أن ما يعرفه أولئك الفقهاء قليل الغناء فى المقصود وان كان لا ينفك عن تعلق به فى حق من يقصد به التقرب (الوظيفة الثانية) ان يقلل علائقه من الاشغال الدنيوية ويبعد عن الأهل والولد والوطن فان العلائق صارفة وشاغلة للقلوب (وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) وكلما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق . ولهذا قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا أعطيته كلك فأنت من اعطائه إياك بعضه على خطر والفكرة مهما توزعت على أمور كانت كجدول ماؤه منكشف منبسط فينشفه الهواء والأرض ولا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ

المزرعة وينتفع به (الوظيفة الثالثة) أن لا يتكبر على العلم واهله ولا يتأمر على المعلم بل يلقى اليه بزمام أمره فى تفصيل طريق التعـــلم ويذعن لنصحه اذعان المريض للطبيب . أما التكبر على العلم فان يستنكف من استفادته ممن يعرفه وهو عين الحق بل الحـكمة ضالة كل حكيم فحيث يجدها ينبغى أن يغتنمها ويستفيدها ويتقلد بها المنة .

فالعلم حرب للفتى المتعالى　　كالسيل حرب للمكان العالى

فلابد من التواضع ولذلك قال تعالى (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) أى يكون مشتغلا بالعلم وهو المراد بمن له قلب أو كان فيه من العقل ما يحمله على القاء السمع وحسن الاصغاء والضراعة. ومهما لم يكن المتعلم لمعلمه كأرض جدبة نالت مطراً غزيراً فيلقاه بالقبول من غير دفع لم ينتفع به . ومهما أشار المعلم فى طريق التعلم بما يراه المتعلم عين الخطأ ويعتقده قطعا فليتهم نفسه وليصبر وليتبع معلمه فان خطأ معلمه خير من صواب نفسه كسالك الطريق يكون قد استفاد بالتجربة ما يتعجب المبتدى منه . وعلى هذا نبه الله تعالى فى قصة الخضر وموسى فانه قال (هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) إلى قوله (فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) ثم لم يصبر وراجعه وراده إلى أن قال (هذا فراق بينى وبينك) . ثم نبه على أسرار ما استبعده كما ورد به القرآن فعرف الله موسى أن المعلم يعلم مالا ينتهى اليه عقل المتعلم ووهمه . وبالجملة فكل متعلم لم يتبع مراسم معلمه فى طريق التعلم فاحكم عليه بالاخفاق وقلة النجح . فان قلت فقد قال تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) فاعلم ان هذا ليس مناقضا لمنع موسى من السؤال ولا لما ذكرناه لان النهى هو منع عن طلب مالم يبلغ إلى حد يدركه فاذا منعه المعلم من السؤال عنه فليمتنع والامر هو حث على معرفة تفصيل ما تقتضيه رتبته من العلم (الوظيفة الرابعة) أن الخائض فى العلوم النظرية

لا ينبغى أن يصغى أولا إلى الاختلاف الواقع بين الفرق والشبه المشككة
المحيرة ما لم يكن بعد تمهيد قوانينه فان ذلك يفتر عزمه فى أصل العلم ويؤيسه
عن حقيقة الدرك لأسباب ذكرناها فى كتاب معيار العلم فليتقن الأصول
والرأى الذى اختاره أستاذه وطريقه . ثم ليخض بعد ذلك فى تعريف الشبه
وتعقبها — ولهذا نهى الله تعالى من لم يقو فى الإسلام عن مخالطة الكفار
حتى قيل كان أحد أسباب تحريم الخنزير ذلك إذ كان أكثر أطعمة الكفار
فحرم ذلك ليكون مزجرة المسلمين عن مواكلتهم التى كانت سببا للمخالطة —
ولهذا يجب صيانة العوام عن مجالس أهل الأهواء كما يصان الحرم عن مخالطة
المفسدين . فاما من قويت فى الدين شكيمته واستمر فى نفسه برهانه وحجته
فلا بأس عليه بالمخالطة بل الأحب المخالطة والاصغاء إلى الشبه والاشتغال
بحلها ويكون به مجاهداً فان القادر يستحب له التهجم على صف الكفار والعاجز
يكره له ذلك . ومن هذا الأصل غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف
الاقوياء فى الدين حتى قال بعض مشايخ الصوفية من رآنى فى الابتداء قال
صديقا . ومن رآنى فى الانتهاء قال زنديقا . يعنى أن الابتداء يقتضى المجاهدة
الظاهرة للاعين بكثرة العبادات وفى الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن فيبقى
القلب على الدوام فى عين الشهود والحضور وتسكن ظواهر الأعضاء فيظن
أن ذلك تهاون بالعبادات وهيهات — فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها
وغايتها ولكن أعــين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس (الوظيفة
الخامسة) للمتعلم أن لا يدع فنا من فنون العلم ونوعا من أنواعه إلا وينظر
فيه نظراً يطلع به على غايته ومقصده وطريقه . ثم إن ساعده العمر وأتته
الأسباب طلب التبحر فيه فان العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض
ويستفيد منه فى الحال حتى لا يكون معاديا لذلك العلم بسبب جهله به فان
الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك
قديم) قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرآ به الماء الزلالا

فلا ينبغى أن يستهين بشىء من أنواع العلوم بل ينبغى أن يحصل كل
علم ويعطيه حقه ومرتبته فان العلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله
أو معينة على أسباب السلوك . ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصد.
والقوام بها حفظة كحفظة الرباطات والثغور على طريق الجهاد والحج ولكل
واحد منها رتبة (الوظيفة السادسة) أن لا يخوض فى فنون العلم دفعة بل
يراعى الترتيب فيبدأ بالأهم فالأهم ولا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى
قبله فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق إلى البعض . والموفق
مراعى ذلك الترتيب والتدريج قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق
تلاوته) أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا وليكن قصده من كل
علم يتحراه الترقى إلى ما فوقه . وينبغى أن لا تحكم على علم بالفساد لوقوع
الاختلاف بين أصحابه فيه ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب
العلم بالعمل فيرى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنه
لو كان لها أصل لادركها أربابها . وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتابنا
معيار العلم ويرى قوم يعتقدون صحة النجوم لصواب اتفق لواحد . وطائفة
يعتقدون بطلانه لخطأ اتفق لواحد والكل خطأ بل ينبغى أن يعرف الشىء
فى نفسه فلا كل علم يستقل به كل شخص . ولذلك قال على رضى الله تعالى
عنه لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله (الوظيفة السابعة)
ان العمر إذا لم يتسع لجميع العلوم فينبغى أن يأخذ من كل شىء أحسنه فيكتفى
بشمة من كل علم ويصرف الميسور من العمر إلى العلم الذى هو سبب النجاة

والسعادة وهو غاية جميع العلوم وهى معرفة الله [1] على الحقيقة والصدق . فالعلوم كلها خدم لهذا العلم وهذا العلم حر لا يخدم غيره . ولهذا قال تعالى (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) وليس المراد تحريك عضلات اللسان بهذه الحروف ولذا قال (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة) فان حركة الأطراف قليل الغناء إذا لم يكن مؤثرا فى القلب أو لم يكن صادرا عن أثر راسخ فى القلب أوله اعتقاد يسمى إيمانا . ثم ينتهى ترتيبه إلى مثل ايمان أبى بكر الذى لو وزن بايمان العالمين لرجح هذا مع التصريح بأنه ما فضلكم بكثرة صيام وصلاة ولكن بسر وقر فى قلبه . فان كان منتهى العلم بالله اعتقاد ما اعتقده المقلد المتكلم المتعلم بتحرير الدليل فما عندى أن هذا يعجز عنه عمر وعثمان وكافة الصحابة حتى كان قد فضلهم أبو بكر به — وبهذا يستبين للمنصف أن طريق الصوفية وان كان يرى مائلا عن أكثر الظواهر فمشهود له من الشرع بشواهد قوية فلاينبغى أن يعاديها الجاهل لجهله وقصوره عنها . وعلى الجملة فمعرفة الله غاية كل معرفة وثمرة كل علم على المذاهب كلها . وقد روى أنه رئى صورتا حكيمين من الحكماء المتعبدين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها (ان احسنت كل شىء فلا تظنن إنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء) وفى يد الآخر (كنت قبل أن عرفت الله أشرب واظمأ حتى إذ عرفته رويت بلا شرب)

(الوظيفة الثامنة) أن تعرف معنى كون بعض العلوم أشرف من بعض فان شرف العلم يدرك بشيئين (أحدهما) بشرف ثمرته والآخر بوثاقة دلالته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة علم الدين الحياة الأبدية التى لا آخر

---

(١) وهى لاتنال الا بامرين حرية العقل النظرى المحررة له من رق التقليد والوهم وحرية العقل العملى المحررة له من عبودية الجسم فاذا تم له هاتان الحريتان يصل الى ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

لها فكان أشرف من علم الطب الذى ثمرته حياة البـدن إلى غاية الموت . وأما الحساب إذا أضفته إلى الطب فالحساب أشرف باعتبار وثاقة دلالته فان العلوم بها ضرورية غير متوقفة على التجربة بخلاف الطب . والطب أشرف باعتبار ثمرته فان صحة البدن أشرف من معرفة كمية المقادير . والنظر إلى شرف الثمرة أولى من النظر إلى وثاقة الدليل . وأشرف العلوم ثمرة العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله وما يعين عليـه فان ثمرته السعادة الأبدية

(الوظيفة التاسعة) أن تعرف أنواع العلوم بقول جملى وهى ثلاثة . علم يتعلق باللفظ من حيث يدل على المعنى . وعلم يتعلق بالمعنى المجرد . أما المتعلق باللفظ فهو ما عرف به المعانى بالحس وأريد أن تعرف الالفاظ الموضوعة بالاصطلاح للدلالة عليها وهى قسمان (أحدهما) علم اللغات والآخر لواحقها كعلم الاشتقاق والاعراب والنحو والتصريف وعلم العروض والقوافى . وقد ينتهى إلى العلم بمخارج الحروف وما يتعلق به . وأما المتعلق بالمعنى من حيث يدل باللفظ عليه فعلم الجدل والمناظرة والبرهان والخطابة فان الناظر فى هذه العلوم عالم باللغة وموجب الالفاظ وعالم بالمعانى وعالم بترتيب ايرادها وكيفية نظمها على وجه يؤدى إلى تحصيل العلم اليقينى فيكون برهانا أو إلى الزام الخصم فيكون جدلا أو إلى اقناع النفس الاقناع الذى يبتغى للاستدراج والمحالة فيسمى خطابة ووعظا ويسمى أيضاً دليلا فانها تدل المخاطبين على المقاصد وتسوقهم إلى اعتقاداتهم التى فيها نجاتهم وعليه أكثر دلالات الاخبار [1] والقرآن المستدل بها على الكفار وهو أكثر أنواع الأدلة نفعا وأعمها فى حق الجماهير جدرى . فأما البرهان الحقيقى اليقينى فلا يستقل بفهمه ودركه الا أكابر العلماء المحققين الذين لاتسمح الأعصار بآحادهم . وأما

---

(١) يعنى عند اجرائها على الظواهر المتبادرة منها وهى المفاهيم الجمهورية والا فالتغلغل فى حقائقها يؤدى الى دقائق العلوم البرهانية اليقينية

الجدل فأقل الاقسام فائدة فى الإرشاد اذ المحقق لا يقنع بما يبنى دلالته على تسليم الخصم وليس مسلما فى نفسه . والعامى لا يفهمه بل يكل فهمه عن دركه والمشاغب المناظر فى أكثر الامر اذا أفحم استمر على اعتقاده واحال بالقصور على نفسه وقال لو كان صاحب مذهبي حيا وحاضرا لقدر على الانفصال عنه . وأكثر ماذكره المتكلمون فى مناظراتهم مع الفرق جدليات — وهكذا ما يجرى فى مناظرات الفقه — ولذلك لا تنكشف مناظرة عن تنبه متنبه برجوعه عن مذهبه الى غيره . وأما القسم الثالث المتعلق بالمعنى فضربان علمى مجرد وعملى . أما العلمى فمعرفة الله تعالى ومعرفة الملائكة والانبياء أى معرفة النبوة ومراتبها ومراتب الملائكة وملكوت السموات والارض وآيات الآفاق والانفس وما بث فيها من دابة . ومعرفة الكواكب السماوية والآثار العلوية . ومعرفة أقسام الموجودات كلها . وكيفية ترتيب البعض منها على البعض وكيفية ارتباط البعض منها بالبعض وكيفية ارتباطها بالاول الحق المقدس عن الارتباط بغيره ومعرفة القيامة والحشر والنشر والجنة والنار والصراط والميزان ومعرفة الجن والشياطين وتحقق أن ما سبق الى الافهام العامية من ظاهر هذه الالفاظ حتى تخيلوا منها فى الله تعالى أمورا من كونه على العرش وفوق العالم بالمكان وقبله بالزمان وما اعتقدوه فى الملائكة والشياطين وفى أحوال الآخرة من الجنة والنار هل هى كما اعتقدوه من غير تفاوت أو هى أمثلة وخيالات ولها معان سوى المفهوم من ظاهرها . فتحقق هذه الامور بالصدق والحقيقة الصافية عن الشك ورجم الظنون المنفكة عن المرية والتخمين هى العلوم النظرية المجردة عن العمل . وأما العملى فهى الأحكام الشرعية والعلوم الفقهية والسنن النبوية وذلك معرفة سياسة النفس مع الاخلاق كما مضى ومعرفة تدبير أهل البيت والولد والمطعم والملبس وكيفية المعيشة والمعاملة . وهذا علم الفقه ويشتمل على ربع المعاملات والنكاح

والعقوبات . ثم اذا عرف أنواعها فينبغى أن يعرف مراتبها كيلا يضيع العمر الا فى المقصود أو فيما يقرب منه . وأما المقتنع بالقسم الاول المتعلق باللفظ فمختصر على القشر المحض . والقانع منه بالنحو والاعراب والعروض ومخارج الحروف فقانع أيضا من القشرة بأوجهها . وأما الخائض فى تعرف الطريق الذى به يتميز الدليل الحقيقى عن الاقناع فمشتغل بأمر مهم فان اقتصر عليه فهو مقتصر على الآلة والوسيلة كمن يقصد الحج فيشترى الجمل ويعد الزاد والراحلة ويقعد فى بيته فذلك مهم وضرورى لكونه آلة ضرورية ولكن اذا لم يستعمل فى المقصد لا فائدة له فلا خير فى مجرد السلاح إذا لم يستعمل فى القتال . وأما الخائض فى العلوم العملية المقتصر عليها أعنى الفقهيات وتفصيلها فحاله أقرب من حال المقتصر على اللغات فهو بالإضافة اليه عظيم القدر كما أن العلم باللغات أيضا بالاضافة الى العلم بالرقص والزمر عظيم ولكن ان أضيف الى جانب المقصود فهو فى غاية البعد ولا يتشكل ذلك الا بمثال . فاذا علق السيد عتق عبده على أن يحج ووعده بعد ذلك بما ينال به الرئاسة فله ثلاث مقامات فى الوصول إلى سعادة العتق وما بعده (الاول) تهيئة الاسباب بشراء الناقة وخرز الراوية واعداد الزاد (والآخر) السلوك لمفارقة الوطن والتوجه الى المقصد منزلا بعد منزل (الثالث) الاشتغال بالحج ركنا فركنا ثم العتق معه مع التعرض لاستحقاق المال الموصل الى السعادة وله فى كل مقام منازل من أول أعداد الاسباب الى آخره ومن أول سلوك الطريق الى آخره . وليس قرب من ابتدأ باركان الحج من السعادة كقرب من ابتدأ بالاستعداد ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك . فوزان الحج مما نحن فيه كمال النفس بطهارة الاخلاق وقطع الرذائل كلها وكمالها مع ذلك بانكشاف الحقائق لها . ومثال المال الموصل الى الرئاسة ههنا الموت الذى يكشف الحجاب الحائل بينه وبين رتبة مشاهدة نفسه وكمالها وجمالها ليرى نفسه من الكمال

فى أعلى عليين فيفرح به ويسر سروراً مؤبداً . ومثال سلوك منازل الطريق منزلا بعد منزل سلوك مهذب الاخلاق فى محو الأخلاق الرديئة عن نفسه خلقا بعد خلق وطالب العلوم النظرية التى ذكرناها دون سائر العلوم علما بعد علم . ومثال الاستعداد بخرز الراوية وشراء الزاد والناقة سائر العلوم الخادمة للعلوم النظرية من الفقهيات واللغويات . فالمتعلم للفقه كالخارز للراوية والمقتصر عليه كالمقتصر على الراوية . والمقتصر على اللغة كالمقتصر على دباغة الجلد الذى يتخذ منه الراوية مثلا فان الحاج لايستغنى عن الدباغ ومستغرق أوقاته بمعرفة تفريعات الفقه على ما يشتمل عليه الخلافيات فى هـذا العصر مما لم يعهد فى عصر الصحابة كمستغرق أوقاته فى أحكام الراوية بعد سلوك الخيوط التى يخرزها وتحسن الخرز . فان قلت فهذا ان قلته عن اعتقاد فهو خلاف اجماع الفقهاء وان قلته حكاية فمن المعتقد لهذا المذهب . فأقول لست أقوله إلا حكاية عن المذهب الذى مدار أكثر هذا الكتاب على وضعه وهو مذهب التصوف . وقد اتفقوا على المعنى الذي يفهمه هذا المثال وان لم يكن هذا المثال بعينه من جهتهم . فإن قلت فهل ما قالوه حق أم لا . فأقول ليس هذا الكتاب لبيان الحق والباطل بالبرهان فى هذه الأمور بل هى وصايا تنبه على الغفلة وترشد إلى مواضع الطلب كى لا يغفل الإنسان عما قالوه فإن امكانه ليس ببعيد فى أول الأمر فليبحث المتعلم المسترشد عنه ليعرف سره وغائلته . فان قلت انى وان كنت لا أعتقد مذهب التصوف فلاتسمح نفسى أيضاً بعد أن استغرقت عمرى فى الفقه خلافا ومذهبا أن انحط عند الصوفية إلى هذه الرتبة الخسيسة فأرى بهذه العين فلم قلت ان مذهبهم يوجب هذا (فاعلم) أنك تتحقق السبب ان علمت تفاصيل ماسبق من ارتباط السعادة بمحو وإثبات عن النفس وفيها وأن المحو لما لا ينبغى أن يكون تزكية لها والاثبات لما ينبغى أن يكون تكميلا لها بكشف الحقائق فيها — وذلك

لا يحصل إلا بتهذيب الاخلاق والتفكر فى آلاء الله وملكوت السموات والارض حتى ينكشف أسرارها . والفقه إنما يحتاج اليه من حيث أنه يحتاج اليه البدن . والبدن لا يبقى إلا بعلم الابدان وهو الطب . وعلم الاديان وهو الفقه إذ الآدمى خلق بحيث لا يمكن أن يعيش وحده كالبهيمة الوحشية بل يفتقر إلى أن يكون من جمع متعاونين على أشغال كثيرة فى تهيئة المطاعم والملابس وآلاتها . ولابد إذ كان لهم اجتماع من أن يكون بينهم عدل وقانون فى المعاملة عليـــه يترددون ولولاه لتنازعوا وتقاتلوا وهلكوا . فالفقه هو بيان ذلك القانون وتفصيله فى ربع النكاح والمعاملات والعقوبات . فالبدن فى طريق السائرين إلى الله تعالى يجرى مجرى الناقة والراوية فى طريق الحج . ومصالح الابدان كمصالح الناقة . والراوية والعلم المتكفل بمصالح البدن كالصناعة المتكفلة بخرز الراوية وتقديرها وتطهيرها . ورتبته من هـــذا المقصد كرتبتها من ذلك المقصد ان صح ما ذكروه فى السلوك والاستعداد والمقصد . وأنهم يقولون لولا إرادة الله عمارة الدنيا لارتفعت الحجب وزالت الغفلة وتوجه الخلق كلهم إلى سبيل الله وترك كل فريق ما هو بعيد عن المقصود ولكن كل حزب بما لديهم فرحون وبه قوام العالم بل لولاه لبطلت الصناعات . فلو لم يعتقد الخياط والحائك والحجام فى صنعته مايوجب ميله اليها لتركها واقبل الكل على أشرف الصنائع وابطلت كثرة الصنائع فان هذه الاسباب ضرورية فى تهيئة الاسباب من أرباب الصنائع فمن رحمة الله غفلتهم بوجه من الوجوه . وعليه حمل بعضهم قوله عليه السلام (اختلاف امتى رحمة) يعنى اختلاف هممهم ولو عرف الكناس ما فى صناعته لتركها ولاضطر العلماء والخلفاء والاولياء أن يتولوها بأنفسهم ـ وكذلك الدباغة والحدادة والزراعة وجميع الامور . فلولا أن الله تعالى حبب علم الفقه والنحو ومخارج الحروف والطب والفقه فى قلوب طوائف لبقيت

هذه العلوم معطلة ولتشوش النظام الكلى وليس من شرط المتجرد لعلم أو صناعة أن يطلع على قدر رتبته ونسبته إلى من فوقه بل إلى من تحته ، وإنما المطلع على جملة مراتب العلوم هو المتكفل بالعلوم كلها وهو الذى آتاه الله الحكمة وأراه الأشياء على ما هى عليه . فهذا جواب هؤلاء . والرأى بعد هذا فى الاقتصار على ما أنت فيه أو بسلوك طريق هؤلاء والبحث عن هذا الفن لتعرف حقيقة الحق فيه (الوظيفة العاشرة للمتعلم) أن يكون قصده فى كل ما يتعلمه فى الحال كال نفسه وفضيلتها . وفى الآخرة التقرب إلى الله عز وجل ولا يكون قصده الرئاسة والمال ومباهاة السفهاء ومماراة العلماء فقد قال عليه السلام (من تعلم العلم ليباهى به السفهاء ويمارى به العلماء دخل النار) وقد سبق أن العلوم لها منازل فى الوصول بها إلى الله عز وجل والقوام بتلك العلوم كحفظة الرباطات فى طريق الجهاد . فاذا عرف كل أحد رتبته ووفاه حقه وقصد به وجه الله تعالى لم يضع أجره فان الله يرفعه بقدر علمه فى الدنيا والآخرة . وقال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال (هم درجات عند الله) ولا ينبغى أن يغير رأيك فى العلوم بما حكيناه من طريق الصوفية فانهم لا يعتقدون حقارة العلوم بل يعتقد كل مسلم حرمتها وعظمتها . وما ذكروه إنما أوردوه بالاضافة إلى مرتبة الأولياء والأنبياء وذلك جار مجرى استحقارك الصارفة عند قياسهم بالسلاطين والوزراء . وذلك لا يوجب نقيصتهم مهما قستهم بالكناسين والدباغين ولا تطالب من نزل عن الرتبة القصوى لسقاطة القدر بها فان الرتبة القصوى للأنبياء ثم الأولياء ثم للعلماء على تفاوت مراتبهم ثم للصالحين فى الأعمال . وبالجملة (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) ومن قصده التقرب إلى الله بالعلوم نفعه الله ورفعه لا محالة . فهذه هى الوظائف للمتعلم . وأما وظائف المعلم المرشد فهى ثمان (واعلم) قبل كل شىء أن للانسان فى العلم أربعة أحوال كما فى اقتناء الأموال إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال وحال انفاق على نفسه فيكون منتفعا وحال افادته غيره بالانفاق فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم كالمال ولصاحبه حال استفادة وحال تحصيل وهو فيه محصل مستغن عن السؤال وحال استبصار وهو تفكره فى المحصل وحال تبصير وتعليم وهو أشرف أحواله . فمن أصاب علما فاستفاده وأفاد كان كالشمس تضىء لنفسها ولغيرها وهى مضيئة والمسك الذى يطيب وهو طيب . ومن أفاد غيره ولم ينتفع به فهو كالدفتر يفيد غيره وهو خال عنه وكالمسن يشحذ غيره ولا يقطع أو كذبالة المصباح تضىء غيرها وهى تحترق . فأول وظائف المعلم أن يجرى المتعلم منه مجرى بنيه كما قال عليه السلام (انما أنا لكم مثل الوالد لولده) وليعتقد المتعلم أن حق المعلم أكبر من حق الأب فانه سبب حياته الباقية والأب سبب حياته الفانية . وكذلك قال الاسكندر لما قيل له أمعلمك أكرم عليك أم أبوك . فقال بل معلمى وكما أن من حق بنى الأب الواحد أن يتحابوا ولا يتباغضوا — فكذلك حق بنى المعلم بل حق بنى الدين الواحد فان العلماء كلهم مسافرون إلى الله تعالى وسالكون اليه الطريق . والترافق فى الطريق يوجب تأكد المودة فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة . وانما منشأ التباغض ارادتهم بالعلم والمال والرياسة فيخرجون به عن سلوك سبيل الله ويخرجون عن قوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) ويدخلون تحت قوله (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (الوظيفة الثانية) ان يقتدى بصاحب الشرع فلا يطلب على افادة العلم أجرا ولا جزاء قال تعالى (قل لا أسئلكم عليه أجرا) فان من يطلب المال وأغراض الدنيا بالعلم كمن نظف أسفل مداسه بوجهه ومحاسنه لجعل المخدوم خادما إذ خلق الله الملابس والمطاعم

خادمة للبدن وخلق البدن مركبا وخادما للنفس . وجعل النفس خادما للعلم . فالعلم مخدوم ليس بخادم . والمال خادم ليس بمخدوم ولا معنى للضلال إلا عكس هذا الأمر . والعجب أن الامر قد انتهى بحكم تراجع الزمان وخلو الاعصار عن علماء الدين إلى أن صار المتعلم يقادمعلمه ليستفيد منه ويجلس بين يديه ويطمع فى أغراض دنيوية عوضا عن استفادته — وهذا غاية الانتكاس ومنشأ ذلك طلب المعلمين الرياسة والتجمل بكثرة المستفيدين لقصور علمهم وعدم ابتهاجهم بكمال علومهم الذاتيــــة فاطمع ذلك المستفيدين منهم فيهم (الوظيفة الثالثة) ألا يدخر شيئا من نصح المتعلم وزجره عن الاخلاق الردية فالتعريض والتصريح ومنعه أن يتشوق إلى رتبة فوق استحقاقه وان يتصدى الاشتغال فوق طاقته وأن ينبهه على غاية العلوم . وإنما هى السعادة الأخروية دون أغراض الدنيا فان رأى من لايتعلم إلا لاجل طلب الرياسة ومباهاة العلماء لم يزجره عن التعلم فاشتغاله بالتعلم مع هذا القصد خير من الاعراض فانه مهما اكتسب العلم تنبه بالآخرة لحقائق الامور وان الطالب بالعلم لاغراض الدنيا مغبون . وقد بين العلماء هذا المعنى بقولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله بل أقول ان كان الناس لا يرغبون فى تعلم العلم لله فينبغى أن يدعوهم إلى نوع من العلم يستفاد به الرياسة بالاطماع فى الرياسة حتى يستدرجهم بعد ذلك إلى الحق — ولهذا رؤى الرخصة فى علم المناظرة فى الفقهيات لانها بواعث على المواظبة لطلب المباهاة اولا ثم بالآخرة يتنبه لفساد قصده ويعدل عنه إلى المنهج القويم ويجرى هذا المجرى من قصدنا فى ارهاق الصبى إلى التعلم بالاطماع فى الرياسة انا نطمعه فيه بالصولجان وشراء الطيور وأسباب اللعب ونطاق له ذلك فى بعض الاوقات لتنبعث دواعيه إلى التعلم ابتداء طمعاً فيما رغبناه آخرا تدريجاً . وقد جعل الله تعالى قصد الرياسة من تعلم العلم حفظا للشرع والعلم ويجرى تحريض المتعلمين على العلم

بالاطماع فى الرياسة وحسن الذكر مجرى الحب يبثه الى القمح والملواح[1] المقيد على الشبكة ومجرى شهوة الغذاء والنكاح التى خلقها الله داعية إلى الفعل الذى فيه بقاء الشخص والنوع . ولولا هذه المصلحة فى المناظرة لما كان يجوز أن يسمح فيها بحال من الأحوال فانها ليست تفضى إلى تغيير المذاهب وترك المعتقد (الوظيفة الرابعة) أنه ينبغى أن ينهى عما يجب النهى عنه بالتعريض لا بالتصريح لأن التعريض يؤثر فى الزجر والتصريح بالزجر مما يغرى بالمنهى عنه . قال عليه السلام (لو نهى الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا مانهينا عنه إلا وفيه شىء) وينبه على هذا قصة آدم وحواء وما نهيا عنه . وقد قيل رب تعريض أبلغ من تصريح — وذلك أن النفوس الفاضلة لميلها إلى الاستنباط والتنبه للخفيات تميل إلى التعريض شغفاً باستخراج معناه بالفكر . والتعريض لايهتك حجاب الهيبة . والتصريح يرفعه بالكلية فيستفيد المنهى جراءة على المخالفة إذا اضطر إلى المخالفة مرة أخرى (الوظيفة الخامسة) ان المتكفل ببعض العلوم لا ينبغى له أن يقبح فى نفس المتعلم العلم الذى ليس بين يديه كما جرت عادة معلمى اللغة من تقبيح الفقه عند المتعلمين وزجرهم عنه وعادة الفقهاء من تقبيح العلوم العقلية والزجر عنها بل ينبه على قدر العلم الذى فوقه ليشتغل به عند استكمال ما هو بصدده . وان كان متكفلا بعلمين مترتبين فاذا فرغ من أحدهما رقى المتعلم إلى الثانى وراعى فيه التدريج (الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلمين على قدر افهامهم فلا يرقيهم إلى الدقيق من الجلى وإلى الخفى من الظاهر هجوما وفى أول رتبة ولكن على قدر الاستعداد اقتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم حيث قال (انا معشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم)

---

(١) هكذا بالاصل ولعل الاصح النمط او اللوح

وقال (ما أحد يحدث قوما حديثا لا يبلغه عقولهم إلا كان ذلك فتنة على بعضهم) وقال على رضى الله عنه وقد أومأ إلى صدره (أن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة) وقال عليه السلام (كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله) وقال تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) . وسئل بعض المحققين عن شىء فأعرض . فقال السائل أما سمعت قول رسول الله عليه السلام (من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار) فقال اترك اللجام واذهب فان جاء من يفقه فكتمته فليلجمنى به ولما قال تعالى (ولا تأتوا السفهاء أموالكم) نبه على أن حفظ العلم وامساكه عمن يفسده العلم أولى . ولما قال تعالى (فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم) نبه على أن من بلغ رشده فى العلم ينبغى أن يبث اليه حقائق العلوم ويرقى من الجلى الظاهر إلى الدقيق الخفى الباطن فليس الظلم فى منع المستحق بأقل من الظلم فى اعطاء غير المستحق . وقال المتقدم فى مثل ذلك :

فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وادخار حقائق العلوم عن المستحق لها فاحشة عظيمة . قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمون) (الوظيفة السابعة) ان المتعلم القاصر ينبغى أن يذكر له ما يحتمله فهمه ولا يذكر له أن وراء ما ذكرت لك تحقيقا وتدقيقا أدخره عنك فان ذلك يفتر رأيه فى تلقف ما القى اليه بل يخيل اليه أنه كل المقصود حتى اذا استقل به رقى إلى غيره بالتدريج . ومن هذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع واعتقد الظاهر وحسن حاله فى السيرة فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده وينبه على تأويلات الظواهر فان ذلك يؤدى إلى أن ينحل عنه قيد

الشرع ثم لا يمكن أن يقيد بتحقيق الخواص فيرتفع السد الذى بينه وبين الشرور فينقلب شيطانا وشريراً بل ينبغى أن يرشد إلى علم العبادات الظاهرة والأمانة فى الصناعة التى هو بصددها وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة على الوجه الذى نطق به القرآن وأن لا يولد له شبهة فان تولدت شبهة وتشوقت نفسه إلى حلها فيعالج دفع شبهته بما يقنع به من كلام عامى وان لم يكن على حقائق الادلة . ولا ينبغى أن يفتح له باب البحث والطلب فانه يعطل عليه الصناعة التى بها تعمر الارض وينتفع الخلق . ثم يقصر عن درك العلوم فان وجد ذكيا مستعداً لقبول الحقائق العقلية جاز أن يساعده على التعليم إلى أن تنحل له الشبهات . وقد حكى عن بعض الامم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة فى أخلاقه فان وجدوا فيه خلقا رديا منعوه التعلم أشد المنع . وقالوا انه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردى فيصير العلم آلة شر فى حقه وان وجدوه مهذب الأخلاق قيدوه فى دار العلم وعلموه وما أطلقوه قبل الاستكمال خيفة أن يقتصر على البعض ولا تكمل نفسه فيفسد به دينه ودين غيره — وبهذا الاختبار قيل (نعوذ بالله من نصف متكلم ونصف طبيب فذلك يفسد الدين وهذا يفسد الحياة الدنيا) (الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم للعلم العملى أعنى الشرعيات عاملا بما يعلمه فلايكذب مقاله بحاله فينفر الناس عن الاسترشاد والرشد — وذلك أن العمل مدرك بالبصر والعلم بالبصيرة وأصحاب الابصار أكثر من أرباب البصائر فليكن عنايته بتزكية أعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره . وكل طبيب يتناول شيئا وزجر الناس عنه وقال لا تتناولوه فانه سم يحمل على الهزؤ والسفه واتهم واعتقد فيه أنه أنفع الاشياء . وانما هو الذى يريد أن يستأثر به فينقلب النهى اغراء وتحريضا . والمتعظ من الواعظ يجرى مجرى الطين من النقش والظل من العود وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه وكيف يستوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

بل قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك قيل وزر العالم فى معاصيه أكثر من وزر غيره لأنه يقتدى به فيحمل أوزاراً مع أوزاره كما قال عليه السلام (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) فعلى كل عاص فى كل معصية وظيفة واحدة وهو تركها وترك الاظهار كيلا يتبعه الناس فاذا أظهر فقد ترك واجبين وان أخفى فقد ترك أحد الواجبين . ولذلك قال على رضى الله تعالى عنه (قصم ظهرى رجلان جاهل متنسك وعالم متهتك فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم يغرهم بتهتكه) .

بيان تناول المال وما فى كسبه من الوظائف

اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأن الدنيا مزرعة الآخرة ففيها الخير النافع وفيها السم الناقع . ومثالها مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى ، وقيل المال من الخيرات المتوسطة فانه ينفع من وجه ويضر من وجه فلم يكن بد من الاقتصار على النافع منه والاحتراز من المهلك منه . وأصل ذلك معرفة رتبة المال من المقاصد فان أصل الأمور كلها العلم بحقائق الاشياء فنقول على طالب السعادة الأخروية وظائف فى حق المال من حيث جهة الدخل وجهة الخرج . وقدر المتناول بالنية الواجبة فى تناوله (الوظيفة الأولى) معرفة رتبته فقد سبق أن المقتنيات المرغوب فيها نفسية ثم بدنية ثم خارجية والخارجية أدناها رتبة والمال من جملة الخارجية وأدناها الدراهم والدنانير فانهما خادمان ولا خادم لهما إذ النفس تخدم العلم والفضائل النفسية لتحصلها . والبدن يخدم النفس فيكون آلة والمطاعم والملابس تخدم البدن . والدراهم والدنانير تخدم المطاعم

والملابس وقد سبق أن المقصود من المطاعم ابقاء البدن ومن البدن تكميل النفس فمن عرف هذا الترتيب ورعاه فقد عرف قدر المال ووجه رتبته وعرف وجه شرفه من حيث هو ضرورة كمال النفس . ومن عرف غاية الشيء واستعمله لتلك الغاية فقد أحسن إلى الغاية وعند ذلك يقتصر على قدر الحاجة الموصولة إلى الغاية فلا يركن اليه معتكفا بكنه همته عليه وبهذا النظر ينكشف له الشبهة فى ذم الله تعالى المال فى مواضع حيث قال (انما أموالكم وأولادكم فتنة) ومدحه حيث امتن به فقال (ويمددكم بأموال وبنين) فانه من حيث كونه وسيلة الآخرة محمود ومن حيث كونه صارفا عنها مذموم . ولذلك قال عليه السلام نعم المال الصالح . وقال تعالى (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وكيف لا يكون خاسرا من يجمع الشعير لدابته فيضع الدابة ويشتغل بتنقية الشعير وعد حباته وبناء حصن حواليه حتى تهلك الدابة جوعا — وهذا مثال من صرفته الدنيا عن الآخرة وهو الخسران بل مثال الناس كلهم فى الاغترار بزهرة الدنيا والاعتكاف على لزوم لذاتها . مثال راكبى سفينة متوجهين إلى أفضل بلدة ينال فيها أعلى رتبة فأفضت بهم السفينة إلى جزيرة ذات أسود وأساود فأمروا بالخروج تهيئة للطهارة وان يكونوا على حذر من غوائل الجزيرة فرأوا حجرا مزبرجا وزهرا منورا فأعجبهم ذلك وشغفوا به فتباعدوا عن المركب ونسوا المركب والمقصد وبقوا لاهين حتى سارت السفينة وجن عليهم الليل فثارت عليهم الاسود تفترسهم والاساود تنهشهم ولم يغن عنهم حجرهم وزهرهم شيئا فيقول واحد منهم يا ليتنى كنت ترابا والآخر يقول ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانية . والآخر يقول ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله ولم يبق بأيديهم إلا حسرة وندامة لا آخر لها ومجاورة الافاعى والاسود مع الخزى والنكال فهذا بعينه مثال المغترين بمتاع الدنيا . ولهذا

الخطر العظيم استعاذ الخليل ابراهيم وقال (اجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام) وعنى به هذين الحجرين الذهب والفضة إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى فيها أن تعتقد الالهية فى شىء من الحجارة . ولهذا قال على (يا حميراء غرى غيرى ويا بويضاء غرى غيرى) ولذلك شبه عليه السلام طلاب الدنانير والدراهم المشغوفين بهما بعبدة الحجارة . فقال تعس عبد الدراهم تعس عبد الدنانير ولا انتعش وإذا شيك فلا انتقش (الوظيفة الثانية فى مراعاة جهة الدخل والخرج) فالدخل اما بالاكتساب واما بالبخت أما البخت فميراث أو وجود كنز أو حصول عطية من غير سؤال . وأما الكسب فجهاته معلومة ومن أخذ من حيث كان مذموم شرعا فلا ينبغى أن يأخذ إلا من وجهه . والوجوه الطيبة معلومة من الشرع . فان وجد حلالا طيبا فليأخذه وان كان حراما محضا فليجتنبه . وان كان مشتبها والغالب انه حرام فليجتنبه . وان كان الغالب انه حلال فان قدر على الحلال المطلق من غير تعب فليترك . فان من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وان لم يتيسر الحلال المطلق فليأخذ منه قدر الحاجة فان كان يقدر على الحلال المطلق ولكن بعد طول التعب واستغراق الوقت . فان كان من العباد العاملين بالجوارح مع اعتقاد عامى مصمم فليشتغل بطلب الحلال فان تعبه فى طلب الحلال عبادة كتعبة فى سائر العبادات . وان كان من أصحاب القلوب وأرباب العلوم وكان يتعطل عليه ما هو بصدده لو استغرق أوقاته فى الحلال المطلق فليأخذ من الذى يتيسر قدر حاجته فان المحظور المحض قد ينقلب مباحا خوفا من محظور آخر أشر منه . فمن غص بلقمة فله أن يتناول الخمر حذرا من فوات النفس والعلم وعمل القلب لا يوازيه غيره . فالكل خدم له فكما يباح اتلاف مال الغير على النفس بل يحل تناول لحم الخنزير — فكذلك فى محل الشبهة يتساهل فى التحريض على العلم وعند هذا قد يثور شغب الجاهل مهما تناول

العالم ما زجر عنه الجاهل اذ لا يدرك الجاهل تفاوت هذه الدقيقة بينهما وليكن العالم متلطفا فى ذلك كيلا يحرك سلاسل الشيطان (الوظيفة الثالثة فى المقدار المأخوذ) ومهما عرفت أن المال لماذا دائر فمعناه مقدار الحاجة المذكورة ولا غنى بك عن ملبس ومسكن ومطعم وفى كل واحد ثلاث مراتب أدنى وأوسط وأعلى . وأدنى المسكن ما يقل من الارض من رباط او مسجد أو وقف كيفما كان وأوسطه ملك لا تزاحم فيه فتقدر على أن تخلو فيه بنفسك وتبقى معك عمرك وهو على أقل الدرجات من حسن البناء وكثرة المرافق وهو حد الكفاية . وأعلاه دار فيحاء فسيحة مزينة البناء كثيرة المرافق وتتبعها زيادات لا تنحصر على ما يرى عليه أرباب الدنيا وأولى الرتب والاول هو قدر الضرورة اذ المقصود من المسكن أرض تملك يحيط بها حائط يمنع عنك السباع ويظل عليك سقف يمنع المطر وحر الشمس وان يقنع به الا المتوكلون والاوسط هو حد الكفاية وما بعده خارج عن حد الدين واقبال على أمر الدنيا أعنى الاشتغال بزينتها . فأما الجلوس فيها مع الغفلة عنها دون ابتهاج بها وطمأنينة اليها فمن المباحات . وأما صرف الاوقات إلى تزيينها فمباح للعوام على لسان الفقه الذى عقد الضرورة جهل العوام وقصورهم عن مشافهتهم بالمنع منه . فأما فى طريق التصوف فحرام وأعنى بالتصوف ما خلق الانسان له من سلوك سبيل القرب الى الله تعالى والعبادات لا مناقشة فيها — ولذلك قيل مباحات الصوفية فريضة وفرائضهم مباحات أى يقتصرون على قدر الضرورة من المباح ويواظبون على الفرائض كما يواظبون على هذه فهى عندهم كالمباحات . وأما المطعم فهو الاصل العظيم إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور — ولهذا أيضا ثلاث مراتب أدناها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن وقوة العبادة وذلك يمكن تقليله بالعادة تارة بتقليل الطعام شيئا فشيئا

حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين . وقد انتهى الزهاد فى القدر كل
يوم إلى حمصة . وبعضهم فى الوقت عشرين يوماً . وقيل أربعين وهذه
رتبة عظيمة يقل من يستقل بها . فان لم يقدر عليه فالدرجة الوسطى وهى فى
ثلث البطن كما ذكرناه من قبل . ولا ينبغى أن يزيد على القدر الذى حدده الشرع .
فالزيادة عليه بطنة . ثم يقتصر أيضا من نوعه على الوسط كما اقتصر من قدره
على الوسط فنعم السعيد من قنع بقدر الكفاية من الجملة ولكن النظر يختلف
فى قدر الكفاية إلى الوقت فرب انسان هو فارغ القلب من قوت يومه مشغول
القلب بعده وينتهى حرصه إلى أن يقدر لنفسه عمراً طويلا ويريد أن يفرغ
قلبه طول عمره . ثم قد يقدر له حوائج فيطلب الاستظهار بالخزائن وهو
الضلال المحض . والمدخر بالاضافة إلى المستقبل ثلاث درجات فأدناها
قوت يوم وليلة وأعلاها مايجاوز سنة وأوسطها قوت سنة وأرفع الدرجات
درجة من يلتفت إلى غده وقصر همته على يومه ومن يومه على ساعته ومن
ساعته على نفسه وقدر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا مستعدا للارتحال.
ومن لم يشتغل بهذا وكان فارغ القلب عن قوت سنة فاشتغل بما وراءه كان
من المطرودين المذكورين بقوله (يحسب أن ماله أخلده) . وأما الملبس
فكذلك فيه ثلاث درجات فأدناها من حيث القدر ما يستر العورة أو الجملة
المعتاد سترها من أدنى الأنواع وأخشنها وبالاضافة الى الوقت ما يبقى يوما
وليلة كما نقل عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه رقع قميصه بورق شجر . فقيل
له هذا لا يبقى فقال أو أحيا إلى أن يفنى . وأوسطه ما يليق بمثل حاله من
غير تنعم وترفه ولاملبوس حرام كابريسم غالب . وأعلاه جمع الثياب
وطلب الترفه بها على ما عليه جماهير أهل الدنيا (وأما المنكح) فانه يزيد
فى حق من تاقت نفسه إلى الوقاع وبحسبه تزيد الحاجة . وقد ذكرنا مايحمد
من المنكح وما يذم وفيما ذكرناه مقنع ومن ساعده من هذه الأمور قدر

كفايته ثم اشتغل قلبه بغيره كان مغبونا بل ملوما . قال عليه السلام (من
أصبح آمنا فى سربه معافا فى بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا
بحزافيرها) وذلك لأن الدنيا بلاغ إلى الآخرة وهذا القدر كاف فى البلغة
فالباقى فضل على الكفاية وزيادة وجودها فى حق العاقل كعدمها (الوظيفة
الرابعة فى الخرج والانفاق) وكما للدخل وجه معين فكذا الخرج فلا بد
من مراعاة الترتيب فيه فالانفاق محمود ومذموم كالأخذ . والمحمود منه
ما يكسب صاحبه العدالة وهو الصدقة المفروضة والانفاق على العيال . ومنه
ما يكسب الحرية والفضيلة وهو إيثار الغير على النفس على الوجه المندوب
اليه شرعا . والمذموم ضربان افراط وتفريط . فالافراط الانفاق أكثر مما
يجب بحيث لايحتمله حاله فيما لا يجب والاخلال بالأهم والصرف إلى مادونه
والتفريط المنع عما يجب الصرف اليه والنقصان من القدر الذى يليق بالحال
ومهما أخذ العبد المال من وجهه ووضعه فى وجهه كان محمودا مأجورا . فان
قلت فمن وسع الله عليه المال فأخذه وانفاقه بالمعروف أولى أو الاعراض
عن أخذه (فاعلم) ان الناس قد اختلفوا فى هذا فقالوا الناس ثلاثة
أصناف صنف هم المنهمكون فى الدنيا بلا التفات إلى العقبى الا باللسان
وحديث النفس وهم الاكثرون . وقد سموا فى كتاب الله عبدة الطاغوت
وشر الدواب ونحوها . وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة اعتكفوا بكنه
هممهم على العقبى ولم يلتفتوا أصلا الى الدنيا وهم النساك . وصنف ثالث
متوسطون وفوا الدارين حقهما وهم الأفضلون عند المحققين لأنهم قوام
أسباب الدنيا والآخرة . ومنهم عامة الأنبياء عليهم السلام إذ بعثهم الله عز
وجل لاقامة مصالح العباد فى المعاش والمعاد . وقيل ثلاثتهم المراد بقوله تعالى
(وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة
ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون) فالمراعى للدنيا والدين كما يجب

وعلى ما يجب جامعا بينهما خليفة الله فى أرضه فهو السابق عند قوم . فان قلت فقد قال تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) (فاعلم) أن مراعاة مصالح العباد من جملة العبادة بل هى أفضل العبادات قال عليه السلام (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله) فان قلت فقد قال بعض المحققين الناس ثلاثة رجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين ورجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين . ورجل مشتغل بهما وذلك درجة المخاطرين . والفائز أحسن حالا من المخاطر (فاعلم) أن فيه سرا وهو أن المنازل الرفيعة لا تنال الا باقتحام الأخطار وانما هذا الكلام ذكر تحذيرا وتنبيها على خطر الخلافة لله تعالى فى أمر عباده حتى لا يترشح لها من لا يقدر عليها . وقد حكى أن بعض أولاد الملوك العادلة عظمت رتبته فى العلم والحكمة فاعتزل الناس وزهد فى الدنيا فكتب اليه بعض الملوك قد اعتزلت ما نحن فيه فان علمت ان ما اخترته أفضل فعرفنا لنذر ما نحن فيه ولا تحسبنى أقبل منك قولا بلا حجة فكتب اليه (اعلم) انا عبيد لرب رحيم بعثنا إلى حرب عدو وعرفنا ان المقصد من ذلك قهره أو السلامة منه . فلما قربنا من الزحف صرنا ثلاثة أقسام . متخوف طلب السلامة منه فاعتزل عنه فالتزم ترك الملامة وان لم يكتسب المحمدة . ومتهور قدم على غير بصيرة لجرحه العدو وقهره واستجلب بذلك سخط ربه : وشجاع أقبل على بصيرة فقاتل وابلى واجتهد فهو الفائز التام الفوز . وانى لما وجدتنى ضعيفا رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين . فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن من أكرمهم عند الله — وهذا الكلام يكشف عن حقيقة الأمر فيه وينبه على صحة ذلك قوله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض) وإنما يمكن الاحسان بادخال السرور على قلوب المسلمين بالمال ولكن الخطر فيه عظيم فانه ربما يشتغل من ضعفت بصيرته بما فيه ضرره من حيث لا يدرى فلخطره وجبت المبالغة فى الزجر عنه (الوظيفة الخامسة) أن تكون نيته صالحة فى الاخذ والترك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ويأكل ليتقوى به على العبادة ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له فقد قال عليه السلام (من طلب رزقه على ما سن فهو جهاد) وقال عليه السلام لابن مسعود (ان المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى اللقمة يضعها فى فم امرأته) وأراد بالمؤمن من يعرف حقائق الأمور فيقصد بما يتعاطاه وجه الله والاستعانة على سلوك طريقه . وعند هذا يتبين أنه ليس الزاهد من لامال له بل الزاهد من ليس مشغولا بالمال وان كان له أموال العالمين ولذلك قال على رضى الله عنه لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض وأراد به وجه الله فليس براغب . فليكن جميع حركاتك وسكناتك لله بأن تكون حركتك مقصورة على عبادة أو على ما يعين على عبادة ولا يستغنى العباد عنه كالأكل وقضاء الحاجة مثلا فانهما معينان على العبادة وهما أبعد الحركات عن العبادة وعند هذا يكون الكامل النفس فى تناول الدنيا كالراقى الحاذق فى مس الحية متقيا سمها ومستخرجا جوهرها . والعامى إذا تشبه به ونظر اليه ظن أنه [1] أخذها مستحسنا شكلها وصورتها مستلينا مسها مستصحبا اياها . فاذا ظن ذلك أخذها وتقلدها فقتلته وقد شبهت الدنيا بها فقيل الدنيا كحية تنفث السموم النواقع وان لان ملمسها وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير فى تخطى قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامى بالكامل فى تناول الدنيا — واذا تؤمل ملك سليمان وما أوتى مع رتبة النبوة علم أن الزهد زهد النفس لا خلو اليد وكيف تضر الدنيا بالأنبياء

(١) قوله انه اى الراقى والضمير فى ظن للعامى

والأولياء وهم يعرفون ضرها ونفعها ورتبتها فى الوجـــود ويعلمون أن للانسان فى وجوده ثلاث منازل (منزلة فى بطن أمه) (ومنزلة فى فضاء العـــالم) (ومنزلة بعد الموت) والدنيا فى مثال رباط بنى . وينتهى اليه المسافر فى المنزل الاوسط . وقد هيئت فيه أسباب وأوان وأقوات ليستعين بها المسافر وينتفع بها انتفاعه بالعارية والمنحة ويخليها لمن يلتحق بعده فيأخذها بشكر ويتركها بانشراح صدر . وقد انتهى الرباط جماعة من الحمقى فظنوا ان هذا المنزل وطن وان هذه الاسباب ليست عارية وانما هى موهبة مؤبدة فصاروا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح . وقيل ان مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا كمثل رجل هيأ داراً وهو يدعو أقواماً إلى داره على الترتيب واحداً بعد واحد فدخل واحداً داره فقدم اليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه لجهل رسمه فظن أنه وهبه له فلما استرجع منه ضجر وتفجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بانشراح صدر . فهذه وظائف المباشرة لأموال الدنيا .

بيان الطريق فى نفى الغم فى الدنيا

مهما كان الإنسان آمنا فى سربه معافا فى بدنه وله قوت يومه فحزنه وغمه بسبب أمر الدنيا امارة نقصانه وحماقته فان غمه ليس يخلو إما أن يكون تأسفا على ماض أو خوفا من مستقبل أو حزنا على سبب حاضر فى الحال . فان كان على فائت فالعاقل بصير بأن الجزع على مافات لا يلم شعثا ولا يرم ما انتكث . وما لا حيلة له فالغم عليه خرق . ولذلك قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) وقال الشاعر :

وهل جزع يجدى على فأجزعا

وإن كان على حاضر فإما أن يكون حسدا لوصول نعمة إلى من يعرفه أو يكون حزنا للفقر وفقدان المال والجاه وأسباب الدنيا . وسبب هذا الجهل بغوائل الدنيا وسمومها ولو عرفها معرفتها لشكر الله تعالى على كونه من المخففين دون المثقلين ولو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يعشقه لم يعشقه إذ يعلم أن الدنيا حالة المصائب كدرة المشارب تورث للبرية أنواع البلية مع كل لقمة غصة فما أحد فيها إلا وهو فى كل حال غرض لأسهم ثلاثة سهم نقمة وسهم رزية وسهم منية .

تناضله الارقات من كل جانب　　فتخطئه طورا وطورا تصيبه

فمن كان معتبرا بما يتجدد كل يوم من ارتجاع النعم من أربابها وحلول القوارع بأصحابها وشدة اغتمامهم بفقدها لم يتأسف على فواتها — ولذلك قيل لبعضهم لم لا تغتم قال لأنى لا أقتنى مايغمنى فقده . ومهما أمعن الإنسان فكره فى غفلة أرباب الدنيا عن الآخرة وكثرة مصائبهم فيها تسلى عنها وهان عليه تركها . وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى (أى البيمارستان) ليشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم ويحضر حبس السلطان أيضا ويشاهد أرباب الجنايات ومجيئهم لاقامة العقوبات وأيضا يحضر المقابر فيشاهد أرباب العزاء وأسفهم على مالا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه وكان يعود إلى بيته بالشكر طول النهار على نعم الله عليه فى تخليصه من كل البلايا وحق للانسان فى الدنيا أن ينظر ابدا ما عاش الى من هو دونه ليشكر وفى الدين الى من هو فوقه ليشمر والشيطان اذا استولى نكس هذا النظر وعكسه . فاذا قيل له لم تتعاطى هذا الفعل القبيح اعتذر بان فلانا يتعاطى ما هو اكبر منه مع أنه ليس فى المعصية ولا فى الكفر

مناظرة — وإذا قيل له لم لا تقنع بهذا الموجود فيقول فلان أغنى منى فلم أصبر على ما ليس يصبر عنه . وهذا عين الضلال والجهل المحض . ومهما التقى الهم بهذا العائق بطل غم الحسد . فمن أنعم الله عليه بنعمة فان كان يستحقها لم يغتم به وإن كان لا يستحقها فوبالها عليه أكثر من نفعها . فأما إن كان الغم فى الامر المستقبل فان كان على أمر ممتنع كونه أو واجب كونه مثل الموت فعلاجه محال . وإن كان ممكنا كونه نظر فان كان لا يقبل الدفع كالموت قبل الهرم فالحزن له حماقة . وإن كان قابلا للدفع فلا معنى للغم بل ينبغى أن يحتال لدفع بعقل غير مشوب بحزن . فاذا فعل ما قدر دليه من تمهيد حيل الدفع بقى ساكن القلب منتظراً اقضاء الله وقدره عالماً بأنه لا مرد لما قضاه فيتلقاه بصبر ان لم يندفع ويتحقق ان ما قدر فهو كائن ويتذكر قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) الآية وإنما حرص الناس على تهيئة أسباب الدنيا منشأه الغرور وحسن الظن بانحسار الآفات وتقدم صفاء الاوقات وهيهات ثم هيهات قال على رضى الله عنه ما قال الناس لقوم طوبى لكم إلا وقد خبأ لهم الدهر ليوم سوء وصدق الشاعر فيما قال :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد   إلا أساءت اليه بعد إحسان

وما قصر أبو منصور الثعالبى فى وصف الدنيا حيث قال :

تسل عن الدنيا ولا تخطبنها
ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يفى مرجوها بمخوفها
ومكروهها لما تدبرت راجح

لقد قال فيها الواصفون فأكثروا
وعندى لها وصف لعمرى صالح
سلاف قصاراه زعاف ومركب
شهى إذا استلذذته فهو جامح
وشخص جميل يونق الناس حسنه
ولكن له أسرار سوء قبائح

فالعاقل إذا أمعن النظر فى هذه الامور خف على قلبه أكثر الغموم إلا إذا كانت العلاقة قد استحكمت بينه وبين معشوق من آدمى أو مال أو عقار أو حرفة أو رياسة أو ولاية أو أمر من الامور فلا خلاص له عن غمومها إلا بعد قطع العلائق عنها . ولا يمكن ذلك إلا بكف النفس عنها تدريجا والاشتغال بغيرها وان كان ذلك الغير أيضا مما يجانسها فى وجوب التباعد عنه ولكن لا بأس بغسل الدم بالدم إذا كان الاول أشد لصوقاً والتزاقاً — وهذه من دقائق الرياضات فان النزوع عما وقع الالف به دفعة واحدة عسر بل ممتنع — ولذلك يرقى الصبى الذى يعلم الادب بالترغيب فى اللعب بالصولجان والطيور . ثم يكف عن اللعب بالترغيب فى الثروة والمال والتزين بالثياب الجميلة وغيرها . ثم يرقيه من ذلك بالترغيب فى المحمدة والثناء ونيل الكرامة والرئاسة . ثم يرقيه بالترغيب فى سعادة الآخرة ويكون الرئاسة آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين ولقد كانت هذه المعالجة بأمور محذورة فى نفسها ولكن مطلوبه بالاضافة إلى ما هو شر منها وكانها منازل وأطوار الآدمى يرتقى فيها واحداً واحداً ولا يمكن الخلاص إلا بهذا التدريج . فليراع ذلك فى كل صفة استولت على النفس واشتدت علاقتها وبقطع العلائق تمحى الغموم .

بيان نفي الخوف من الموت

للانسان حالتان حالة قبل الموت . وحالة عند الموت . أما قبل الموت فينبغي أن يكون الانسان فيها دائم الذكر للموت كما قال عليه السـلام (اكثروا من ذكر هازم اللذات فانه ما ذكره أحد في ضيق إلا وسعه عليه ولا في سعة إلا ضيقها عليه) والناس فيها قسمان . غافل وهو الأحمق الحقيقي الذي لا يتفكر في الموت وما بعده إلا ناظرا في حال أولاده وتركاته بعد موته ولا ينظر ويتدبر في أحوال نفسه ولكن لا يتذكر إلا إذا رأى جنازة فيقول بلسانه (إنا لله وإنا اليه راجعون) ولا يرجع إلى الله عز وجل بأفعاله إلا بأقواله فيكون كاذبا في أقواله تحقيقا . وأما العاقل الكيس فلا يفارقه ذكر الموت كالمسافر إلى مقصد الحاج مثلا فانه لا يفارقه ذكر المقصد . واشغال المنازل في الحط والترحال لا تنسيه مقصوده . وعلى الجملة فذكر الموت يطرد فضول الأمـــل ويكف غرب المنى فتهون المصائب ويحول بين الانسان وبين الطغيان . ومن ذكر الموت تتولد القناعة بما رزق والمبادرة إلى التوبة وترك المحاسدة والحرص على الدنيا والنشاط في العبادة . وينبغي أن يكون المتراخي عن عبادته ألا يصبح يوما إلا ويقدر أنه سيموت تقديرا للموت العاجل فانه ممكن . ومهما قدر الموت بعد سنين لم يحرص على العبادة ولم تفتر رغبته في الدنيا بل لا ينبغي أن يهمل نفسه أكثر من يوم فيصبح كل يوم على تقدير الاستعداد للرحلة نهاراً . فكل من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كل ساعة فينبغي أن يكون مستعدا للاجابة فان لم يكن فربما يأتيه الرسول وهو غافل فيحرم عن السعادة . وما من وقت إلا ويرى فيه الموت ممكنا . فان قلت الموت فجأة بعيد . قلت فاذا وقع المرض فالموت غير بعيد ـ وذلك يمكن في أقل

من يوم ولا يكون بعيدا وأما الاغتمام لأجل الموت فليس من العقل أيضا فان ذلك الغم لا يخلو من أربعة أوجه . اما لشهوة بطنه وفرجه . واما على ما يخلفه من ماله . واما على جهله بحاله بعد الموت ومآله . واما لخوفه على ما قدمه من عصيانه . فان كان ذلك لشهوة بطنه وفرجه فهو كمشتهي داء ليقابله بداء مثله فان معنى لذة الطعام إزالة ألم الجوع ـ ولذلك إذا زال الجوع وامتلأت المعدة كره عين ما اشتهاه كمن يشتهي القعود في الشمس لينا له الحر حتى يتلذذ بالرجوع إلى الظل وكمن يشتهي الحبس في حمام حار ليدرك لذة ماء الثلج إذا شربه وهو عين الرقاعة والخرق وان كان ذلك على ما يخلفه من ماله فهو بجهله بخساسة الدنيا وحقارتها بالاضافة إلى الملك الكبير والنعيم المقيم الموعود للمتقين وان كان ذلك لجهله بعاقبة أمره بعد الموت فعليه أن يطلب العلم الحقيقي الذي يكشف له حال الانسان بعد موته كما قال حارثة للنبي صلى الله عليه وسلم كأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتلاعنون فيها . وهذا العلم إنما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس وماهيتها ووجه علاقتها بالبدن ووجه خاصيتها التي خلقت لها ووجه التذاذه بخاصيته وكماله مـــع معرفة الرذائل المانعة له من كماله . وقد نبه الشرع عليه في مواضع كثيرة وأمر بالتفكر في النفس كما أمر بالتفكر في ملكوت السموات والأرض وان كان ذلك لما سبق من عصيانه فلا ينفع الغم فيه بل المداواة وهو المبادرة إلى التوبة واصلاح ما فرط من أمره بل مثاله في الاغتمام وترك التدارك مثل من فتح عرقا من عروقه وقد خرج بعض دمه وهو قادر على تعصيبه وحفظ حشاشته فأهمله وجلس متأسفاً على خروج ما خرج من دمه ـ وذلك أيضا من الحماقة فان الفائت لا تدارك له ولا ينفع فيه التأسف فليشتغل بالمستقبل (الحالة الثانية) حال الانسان عند الموت والناس عنده ثلاثة أقسام (الأول)

ذو بصيرة علم أن الموت يعتقه والحياة تسترقه وأن الانسان وان طال فى
الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت فى أكناف السماء ثم عادت للاختفاء فلا
يثقل عليه الخروج من الدنيا الا بقدر ما يفوت من خدمة ربه عز وجل
والازدياد من تقربه والاشفاق مما يقول أو يقال له كما قال بعضهم لما قيل
له لم تجزع قال لانى أسلك طريقا لم أعهده وأقدم على رب لم أره ولا أدرى
ما أقول و ما يقال لى . ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت بل إذا عجز
عن زيادة العبادة ربما اشتاق اليه وقال بعضهم فى مناجاته الهى إن سألتك
الحياة فى دار الممات فقد رغبت فى البعد عنك وزهدت فى القرب منك فقد
قال نبيك وصفيك صلى الله عليه وسلم (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
ومن كره لقاء الله فقد كره الله لقاءه) (والثانى) رجل ردىء البصيرة
متلطخ السريرة منهمك فى الدنيا منغمس فى علائقها رضى بالحياة الدنيا
واطمأن بها ويئس من الدار الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور .
فاذا خرج إلى دار الخلود أضر به كما تضر رياح الورد بالجعل . وإذا
خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء ومصباح الملأ الاعلى فكان
كما قال الله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا)
فان الدنيا سجن الاول وجنة الثانى (والاول) كعبد دعاه مولاه فأجابه
طوعا فقدم عليه مسرورا بتوفره على الخدمة (والثانى) كعبد آبق رد إلى
مولاه مأسورا وقيد إلى حضرته مقهورا فيبقى ناكس الرأس بين يدى مولاه
مختزيا من جنايته وشتان ما بين الحالين (والقسم الثالث) رتبة بين الرتبتين
رجل عرف غوائل هذا العالم وكره صحبته ولكن أنس به وألفه فسبيله
سبيل من الف بيتا مظلما قذرا ولم ير غيره فهو يكره الخروج منه وإن كان
قد كره دخوله . فاذا خرج ورأى ما أعد الله للصالحين لم يتأسف على ما كره
فواته بل قال (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور الذى

أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) ولا
يبعد أن يكره الانسان مفارقة شىء ثم إذا فارقه لا يتأسف عليه فالصبى
وقت الولادة يبكى لما يناله من ألم الانتقال ثم إذا عقل لم يتمن العود اليه
والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمال لم يكن قبل بشرط أن لا يكون قد
تقدم قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما أبطل قبول المحل للكمال
كما أن الولادة سبب لكمال مغبوط لم يكن عند الاجتنان بشرط أن لا يكون
قد تمكن فى رحم الام من الاسباب والعلل والعوارض ما منع قبول الكمال
ولكون الموت سبب كما قال بعضهم ينبغى أن يكون دعاؤنا لعزرائيل عليه
السلام وشكرنا له مثل دعائنا لجبرائيل وميكائيل واسرافيل فان جبرائيل
وميكائيل هما سببان لاعلامنا بما فيه خلاصنا من الدنيا ونجاتنا فى الآخرة .
وذلك بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم . وملك الموت سبب اخراجنا إلى
ذلك العالم فحقه عظيم وشكره لازم . وقد حكى عن طائفة من حكماء الامم
السابقة أنهم كانوا يعظمون رجلا بالتقديس والتسبيح من حيث اعتقدوا
أنه لا يمين على الحياة المرضية بل هو سبب للهلاك الذى به الخلاص من
هذه الدنيا الدنية .

بيان علامة المنزل الاول من منازل السائرين إلى الله تعالى

(اعلم) أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعى فيه كثير . ونحن
نعرفك علامتين تجعلهما أمام عينيك وتعتبر بهما نفسك وغيرك (فالعلامة
الاولى) أن يكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة
على حد توقيفاته إيرادا واصدارا واقداما واحجاما إذ لا يمكن سلوك
هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ولا يمكن ذلك إلا بعد
تهذيب الاخلاق كما وصفنا من قبل ولا يتوصل إلى ذلك إلا إذا ترك

جملة من المباحات فكيف يتأتى لمن لم يهجر المحظورات ولم يتوصل اليه مالم يواظب على جملة من النوافل فكيف يصل اليه من أهمل الفرائض بل الشرع فى تكليفه العالم اقتصر على فرائض ومحظورات يشترك فيها عوام الناس بحيث لا يؤدى الاشتغال بها إلى خراب العالم . والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا اعراضا لو ساواه الناس كلهم لخرب العالم فكيف ينال بمجرد الفرائض والواجبات اقتصارا عليها دون النوافل . ولذلك قال تعالى (لايزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا فبى يسمع وبى يبصر) وعلى الجملة لا يدعو الى اهمال الفرائض واقتحام المحظورات الا كسل لازب أو هوى غالب . وكيف يسلك سبيل الله من هو يعد فى اسراء الكسل والهوى . فان قلت فسالك سبيل الله من خاض فى مجاهدة الكسل والهوى فأما من فرغ من قهرهما فهو واصل لا سالك فيقال هذا عين الغرور وجهل بالطريق والمقصد جميعا بل لو محى جميع الصفات الردية عن نفسه كان نسبته إلى المقصود نسبة من يقصد الحج وله غرماء متشبثون بأذياله فقضى ديونهم وقطع علائقهم فان الصفات البدنية المستولية على الناس مثل الغرماء الآخذين بمخنقه والسباع العادية الطالبة لاقواتها فاذا محاها ودفعها فقد دفع العلائق وبعده يستعد لابتداء السلوك بل هو كمعتدة تطمع أن ينكحها الخليفة فاذا قضت عدتها المانعة من صحة النكاح ظنت أن الأمور قد تمت وهيهات فلم يحصل منها الا الاستعداد للقبول بدفع المانع وبقى اقبال الخليفة وانعامه بالرغبة — وذلك رزق الهى فما كل من تطهر وصل إلى الجمة ولا كل من قضت عدتها وصلت إلى كل ما أرادت . فان قلت فهل تنتهى رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الامور (فاعلم) أن هذا عين الغرور وان المحققين

قالوا لو رأيتم انسانا يمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع (فاعلم) أنه شيطان وهو الحق . وذلك أن الشريعة حنيفية سمحة فمهما مست حاجة أو حصلت ضرورة كان للشرع فيها رخصة فما جاوز محل الرخصة فلا يكون عن ضرورة بل عن هوى وشهوة . والانسان ما دام فى هذا العالم لا يأمن استيلاء الشهوة وعودها إلى القهر بعد الانقهار فينبغى أن يأخذ منها حذره فلا يتصور أن يدعو إلى مخالفة الشرع الا طلب رفاهية ودعة أو نوع شهوة أو نوع كسل وكل ذلك يدل على التضمخ بالأخلاق الردية المتقاضية لها فمن زكى نفسه وغذاها بغذاء العلوم الحقيقية قوى فى المواظبة على العبادة بل صارت الصلاة قرة عينه وصارت خلوة الليل أطيب الاشياء عنده لمناجاة ربه — فهذه العلامة لابد منها فى أول المنازل وتبقى إلى آخرها وان لم يكن لمنازل السير إلى الله تعالى نهاية . وانما الموت يقطع طريق السلوك فيبقى كل انسان بعد الموت على الرتبة التى حصلها فى مدة الحياة إذ يموت المرء على ما عاش عليه (العلامة الثانية) أن يكون حاضر القلب مع الله فى كل حال حضورا ضروريا غير متكلف بل حضورا يعظم تلذذه وأن يكون الحضور انكسارا وضراعة وخضوعا لما انكشف عنده من جلال الله وبهائه ولا يفارق ذلك فى أطواره وأحواله وان اشتغل بضروريات بدنه من تناول طعام وقضاء حاجة وغسل ثوب وغيره بل يكون مثاله فى جميع الاحوال مثال عاشق سهر فى انتظار معشوقه مدة وتعب فيه زمانا ثم قدم عليه معشوقه فاستبشر به فاستولى عليه قضاء حاجته فلزمه ضرورة مفارقته وقصد بيت الماء فيفارقه ببدنه مضطراً والقلب حاضر عنده حضورا لو خوطب فى أثناء ما هو فيه لم يسمعه لشدة استغراق فكره بمعشوقه ولا يكون ما هو فيه صارفا عن قرة عينه وهو مكره فيه . فالسالك ينبغى أن يكون كذلك فى اشغاله الدنيوية بل لا يكون له شغل سوى ضرورياته

بدنه وهو فى ذلك مصروف القلب الى الله عز وجل مع غاية الاجلال والتواضع . وإذا لم يبعد أن تتحرك شهوة الجماع تحريكا هذه صفته عند من استولى عليه الشهوة ووقع فى عينه جمال صورة آدمى خلقت من نطفة قذرة مذرة ويصير على التراب جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة فكيف يتعذر ذلك فى ادراك جلال الله وجماله الذى لا نهاية له . وعلى الجملة فلا يتم سلوك هذا الطريق الا بحرص شديد وإرادة تامة وطلب بليغ ومبدأ الحرص والطلب إدراك جمال المطلوب الموجب للشوق والعشق . ومبدأ درك جمال المطلوب النظر وتحديق بصر العين نحوه اعراضا عن سائر المبصرات — فكذلك بقدر ما يلوح لك من جلال الله عز وجل ينبعث شوقك وحرصك وبحسبه يكون سعيك وانبعاثك . ثم قد يزداد العشق بطول الصحبة إذا كان يلوح فى أثنائها محاسن اخلاق كانت خفية من قبل فيتضاعف العشق فكذلك ما يلوح من بهاء الحضرة الالهية وجلالها فى أول الأمر ربما كان ضعيفا بضعف إدراك المريد المبتدى ولكن ينبعث منه طلب وشوق فلا يزال يواظب على الفكر فى ذلك الجمال بسببه فيطلع على مزايا فيتضاعف فى كل وقت عشقه وكما يطلب العاشق القرب من معشوقه — فكذا المريد يطلب القرب من الله تعالى لا أن ذلك قرب بمكان أو بتماس سطوح الاجسام بكمال جمال صورة بأن يصير مبصراً حاضراً فى القوة الباصرة صورته — وهذا القرب قرب الكمال لا فى المكان والامثلة لا تخيل من هذه المعانى إلا شيئا بعيدا ولكن تشبيه ذلك بعشق التلميذ أستاذه وطلبه القرب منه فى كماله أصدق فى التخيل فانه يتقرب اليه بحركته فى التعلم ولايزال يقرب منه قليلا قليلا وغايته رتبته . وقد يكون ذلك ممكنا وقد يكون فى بعض الاحوال متعذرا ولكن الترقى من الرتبة التى هو بسببها فى البعد ممكن فيزداد قربا بالنسبة والبلوغ ههنا غير ممكن . ولكن السفر عن أسفل السافلين

بقصد جهة العلو ممكن . وقد يكون الممثل فى عين التلميذ رتبة مقيدة لا أنه يتلبس بعشق رتبة أستاذه ولكن يشتاق الى الترقى درجة درجة فلا يتشوق الى الاقصى دفعة — فاذا نال تلك الرتبة طمحت عينه إلى ما فوقها — فكذلك من ليس عالما ينبغى له التشبه بالعلماء الذين هم ورثة الانبياء . والعلماء يتشبهون بالاولياء والانبياء بالملائكة حتى تمحى عنهم الصفات البشرية بالكلية فينقلبون ملائكة فى صورة الناس . والملائكة أيضا لهم مراتب والأعلى مرتبة معشوق الادنى ومطمح نظره والملائكة المقربون هم الذين ليس بينهم وبين الاول الحق واسطة ولهم الجمال الاطهر والبهاء الاتم بالنسبة إلى من دونهم من الموجودات الكاملة البهية . ثم كل كمال وجمال بالنظر إلى جمال الحضرة الربوبية مستحقر — فهكذا ينبغى أن يعتقد التقرب إلى الله عز وجل لا بأن تقدره فى بيت فى الجنة فتقرب من باب البيت فيكون قربك بالمكان تعالى عنه رب الارباب ولا بأن تهدى اليه هدية بعبادتك فيفرح بها ويهتز لها فيرضى عنك كما يتقرب إلى الملوك بطلب رضاهم وتحصيل اغراضهم فيسمى ذلك تقربا تعالى الله وتقدس عن المعنى الذى يتصف الملوك به من السخط والرضى والابتهاج بالخدمة والاهتزاز للخضوع والانقياد والفرح بالمتابعة . واعتقاد جميع ذلك جهل فان قلت فقد اعتقد أكثر العوام ذلك فما أبعد عن التحصيل من يطلب العنبر من دكان الدباغ وكيف تطمع فى رتبة وأنت تعرف الحق بالرجال بل أنت تعرف الحق بالحمر فلا فرق بين العوام الذين لم يمارسوا العلوم وبين حمر مستنفرة فرت من قسورة أما تراهم كيف اعتقدوا فى الله تعالى انه جالس على العرش تحت مظلة خضراء الى تمام ما اعتقدوه فى المشتبهات فأكثر الناس مشبهة ولكن التشبيه درجات . منهم من يشبه فى الصورة فيثبت اليد والعين والنزول والانتقال . ومنهم من يثبت السخط والرضى

والغضب والسرور والله تعالى مقدس عن جميع ذلك . وانما أطلقت هذه الألفاظ فى الشرع على سبيل وبتأويل يفهمها من يفهمها وينكرها من ينكرها ولو تساوى الناس فى الفهم لبطل قوله عليه السلام (رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه) ولنتجاوز هذا الكلام فانه سلسلة المجانين ويحل قيود الشيطان .

بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه

لعلك تقول كلامك فى هذا الكتاب انقسم إلى مايطابق مذهب الصوفية وإلى ما يطابق مذهب الأشعرية وبعض المتكلمين ولا يفهم الكلام إلا على مذهب واحد فما الحق من هذه المذاهب فان كان الكل حقا فكيف يتصور هذا وان كان بعضه حقا فماذاك الحق . فيقال لك إذا عرفت حقيقة المذهب لا تنفعك قط إذ الناس فيه فريقان . فريق يقول المذهب اسم مشترك لثلاث مراتب (احداها) ما يتعصب له فى المباهاة والمناظرات (والأخرى) ما يسار به فى التعليمات والإرشادات (والثالث) ما يعتقده الإنسان فى نفسه مما انكشف له من النظريات . ولكل كامل ثلاثة مذاهب بهذا الاعتبار. فأما المذهب بالاعتبار الأول فهو نمط الآباء والأجداد ومذهب المعلم ومذهب أهل البلد الذى فيه النشوء — وذلك يختلف بالبلاد والأقطار ويختلف بالمعلمين . فمن ولد فى بلد المعتزلة أو الأشعرية أو الشفعوية أو الحنفية انغرس فى نفسه منذ صباه التعصب له والذب دونه والذم لما سواه . فيقال هو أشعرى المذهب أو معتزلى أو شفعوى أو حنفى . ومعناه أنه يتعصب أى ينصر عصابة المتظاهرين بالموالاة ويجرى ذلك مجرى تناصر القبيلة بعضهم لبعض . ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة باستتباع العوام ولا تنبعث دواعى العوام إلا بجامع يحمل على التظاهر

فجعلت المذاهب فى تفصيل الأديان جامعا فانقسم الناس فرقاً وتحركت غوائل الحسد والمنافسة فاشتد تعصبهم واستحكم به تناصرهم . وفى بعض البلاد لما اتحد المذهب وعجز طلاب الرياسة عن الاستتباع وضعوا أموراً وخيلوا وجوب المخالفة فيها والتعصب لها كالعلم الأسود والعلم الأحمر فقال قوم الحق هو الأسود وقال آخرون لا بل الأحمر وانتظم مقصود الرؤساء فى استتباع العوام بذلك القدر من المخالفة وظن العوام أن ذلك مهم وعرف الرؤساء الواضعون غرضهم فى الوضع (المذهب الثانى) ما ينطبق فى الارشاد والتعليم على من جاءه مستفيداً مسترشداً — وهذا لا يتعين على وجه واحد بل يختلف بحسب المسترشد فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه فان وقع له مسترشد تركى أو هندى أو رجل بليد جاف الطبع وعلم أنه لو ذكر له أن الله تعالى ليس ذاته فى مكان وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا بالعالم ولا منفصلا عنه لم يلبث أن ينكر وجود الله تعالى ويكذب به فينبغى ان يقرر عنده ان الله تعالى على العرش وانه يرضيه عبادة خلقه ويفرح بها فيثيبهم ويدخلهم الجنة عوضاً وجزاء . وان احتمل أن يذكر له ما هو الحق المبين يكشف له فالمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف ويكون مع كل واحد على حسب مايحتمله فهمه (المذهب الثالث) مايعتقده الرجل سراً بينه وبين الله عز وجل لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره إلا مع من هو شريكه فى الاطلاع على ما أطلع أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه — وذلك بأن يكون المسترشد ذكياً ولم يكن قد رسخ فى نفسه اعتقاد موروث نشأ عليه وعلى التعصب له ولم يكن قد انصبغ به قلبه انصباغا لايمكن محوه منه ويكون مثاله ككاغد كتب عليه ماغاص فيه ولم يمكن ازالته الا بحرق الكاغد وخرقه — فهذا رجل فسد مزاجه ويئس من صلاحه فان كل مايذكر له على خلاف ماسمعه لا يقنعه بل يحرص على ان لا يقنع

بما يذكر له ويحتال فى دفعه ، ولو أصغى غاية الاصغاء وانصرفت همته الى الفهم لكان يشك فى فهمه فكيف اذا كان غرضه ان يدفعه ولا يفهمه فالسبيل مع مثل هذا ان يسكت عنه ويترك على ماهو عليه فليس هو بأول أعمى هلك بضلالته — فهذا طريق فريق من الناس . وأما الفريق الثانى وهم الاكثرون يقولون المذهب واحد هو المعتقد وهو الذى ينطق به تعليما وارشادا مع كل آدمى كيفما اختلفت حاله وهو الذى يتعصب له وهو اما مذهب الاشعرى أو المعتزلى أو الكرامى أو أى مذهب من المذاهب والاولون يوافقون هؤلاء على أنهم لو سئلوا عن المذهب أنه واحد أو ثلاثة لم يجز أن يذكر أنه ثلاثة بل يجب أن يقال أنه واحد — وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب ان كنت عاقلا فان الناس متفقون على النطق بأن المذهب واحد . ثم يتفقون على التعصب لمذهب أبيهم أو معلمهم أو أهل بلدهم ولو ذكر ذاكر مذهبه فما منفعتك فيه ومذهب غيره يخالفه وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه فجانب الالتفات إلى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب ولا تكن فى صورة أعمى تقلد قائدا يرشدك إلى طريق وحواليك الف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل . وستعلم فى عاقبة أمرك ظلم قائدك فلا خلاص إلا فى الاستقلال :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به
فى طالع الشمس مايغنيك عن زحل

ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعاً إذ الشكوك هى الموصلة إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال نعوذ بالله من ذلك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست

ميزان العمل للامام حجة الإسلام الغزالى

صفحة	الموضـــوع

(تم الفهرست)